شعب في السلاسل ..

« قبل أن تحملوا مطارق التحرير ، لينوا مواضع الطرق .. وقبل أن تمضوا الى الغاية مثقلين ، طهروا ارجلكم من الاغلال ، وخففوا كواهلكم من الاثقال »

خالد

على ظهر هذا الكوكب ألفا مليون من البشر ، قرروا من غير لقاء تم بينهم أن يحققوا حرية الشعوب، ويرفعوا الوية الجماهير ..

وهو قرار أزلى قديم .. !

ويوم عزم آباؤهم الأولون على انفاذه أرسلوا رائدهم .. رهيلا من البواسل الامجاد ، مضى كالشهاب يرتاد لهم الطريق .. ! وبينما هو ماض الى غايته ، دهمه البغاة من كل فج يحملون المدى ، والرماح ، والسيوف .. وطفقوا يصلونه من نقمتهم سعيرا .. واذ هو يفكر ـ فى غمرة المباغتة ـ أيمضى قدما أم يعود ـ صاحت به الاجيال المستقرة فى ضمير الغيب :

تقدم .. فليس الى مرد من سبيل ..!

وانطلق من جديد يحمل الامانة الكبرى فى شجاعة وايمان ، ويشق طريقا محفوفا بالمكاره والاخطار . . وكلما مر على ملأ من صنائع الشر سخروا منه وتألبوا عليه .. !

لقيته الجيوش فى موج كالجبال .. شارعة حرابها ، فخاض معها معارك الهول وقضى نحبه فريق .. وتدفق الباقون يتخنون فى الارض المجهولة لا يلقون لهواتف اليأس سمعا ولا بالا .. !

لقيه المرجفون والمثبطون ، وحاولوا ايهامه أن السفر طويل، والزاد قليل ، والمغامرة خاسرة ، والهدف جد بعيد .. فنفاهم عن طريقه ومضى ..

تصدت له قصور الاباطرة ، والقياصر .. تسد الطريق وتزحم الافق .. تطأ بقواعدها أرض الناس ، وتتحدى بأبراجها سماء الله .. فدمدم عليها ، وتركها كثيبا مهيلا .. رحلة الضنى

والهـول .. كلمـا تقطعت دون غايتها أنفاس جيـل أسلمها الى جيل .. وكلما أنجز تبعاته رعيل، نهض فى أثره رعيل ..

وكانت رواية فذة .. اختلفت مناظرها وتغير أبطالها . لكن موضوعها لم يتغير .. !

ما أروع هذا الذى حدث من أجل الحرية .. !

انظر ! مشاهد تغرى بالتشاؤم والقنوط .. وأخرى ترفع قبل العيـون منى عذابا .. وآمالا رطابا .. !

مشـاهد تتقـاذف كهـدير العاصـفة .. وأخرى تنسـاب وديعة ساكنة كأشعة القمر .. !

فى بداية الطريق ظلام ، ويأس، ثم محاولة وتردد ، ثم اقتحـام وتحد .. وعلى طوله أشلاء ودم ومعاصم . وأعاصير وعواصف . ومن وراء ذلك عالم تشرق عليـه من ذلك الافق البعيـد شـمس الحيـاة والحرية والحضارة . .

وعالم آخر لا يزال يلفه مثل الضباب فهو مقرور ضرير .. !

وفى ضمير التاريخ وحده يكمن سر هذا التفاوت البعيد بين الذين غمرتهم الحرية ، فلا يحزنهم اليوم فزع .. ولا يؤرقهم خوف .. والـذين لا يزالون مقـرنين فى الاصفاد ..!

***

وما أشد حاجتنا الى استطلاع هذا السر الدفين لنفقه ، ونرى .!

لقد وقف حسـان بن ثابت شاعر الرسول عليه السلام ذات يوم ينشـد من شعره ما يثير ذكريات الجاهليـة الاولى ... ولكأنما شق الحديث على عمر فهب فى وجهه بصيحته الزاجرة .. فقال له الرسول :

دعه يا عمر يذكرنا بأيام الله ، قال لنا فيها عظة وعبرة . . !

فليتنا نستطيع أن نتذاكر أيام الله فى هذه البشرية الـكادحة ،

لنرى كيف مرقت مروق السهم من قبضة الطغيان والكبت .. وكيف انتقلت من عهد الوحدانية الحاكمة ـ الى عصر الشعوب وحكم الشعوب ..

فبعد أن كان أمير الاقطاع يتوج بوثيقة سطر فيها : «نبايع صاحب الحق المطلق فى حياتنا».

أصبحنا نقرأ مكانها .. لكل انسان الحق فى الحياة ، وفى الحرية ، وفى العيش آمنا مطمئنا ..

وبعد أن كان حسن الجواربين أمير وأمير يقوم على تبادل هذا النص المخزى : « أتعهد الاأعتدى على أرضه ومواشيه ورعاياه العبيد » ..!

صرنا نقرأ بديلها : « لا يجوز أن يعيش انسان فى الرق والاستعباد »

وبعد ان كان الناس ـ كما يقول أوليفيه :

« .. يسخرون لصيد الضفادع من الغدران كى لا تقلق الامير الاقطاعى من نومه »

« ويجلدون بالسياط اذا نهروا كلاب سادتهم التى تخرب حقولهم .. ويقذفون فى السجون اذا عارضوا رغبة الملك وبطانته فى الولوع بزوجاتهم أو بناتهم »

بعد أن كان ذلك كذلك .. اذا لواء السيادة ينعقد اليوم لهؤلاء. فلا يسخرون لصيد الضفادع ، ولا يجلدون بالسياط ، ولا يستباح لهم عرض أو تنتهك لهم حرمات . والآن . لنتذاكر أيام الله فينا .. فى أمتنا التى أتعبت التاريخ وأتعبها .. لنبصر مكانها فى عالم اليوم ، فاذا كانت لا تزال جاثية مصفدة ـ نقبنا عن الاوتاد التى تشدها اليها .. وعملنا لتبديد هذا الضباب الجاثم الذى يحجب عنها ضوء السيادة وحرارتها حتى ينزاح عن أفق طالما بزغت فيه

حضارات ألهبت أشعتها الدافئة ـ الانسانية المقرروة المرعشة بعد أن عادث فيها الصقيع ..

نحن نحس أننا فى بلادنا مستوطنون ، لا مواطنون . . ورعايا ، لا أكفاء ..

رعايا كل حاكم مستبد ، وكل أقطاعى كبير ..

رعايا طائفة من التقاليد العفنة التى توجه السياسة والاقتصاد والاجتماع ..

رعايا استعمار مضى ـ ولايزال ينالنا بأذاه ، واستعمار قائم يلفنا فى الضباب والظلمات .

ويوشك الذى حاق بالهند أن يحيق بنا .. فالبرهميون الذين غزوها وفتحوها ـ أصبحوا هم الهنود .. أما الهنود الاصيلون ، فقد جرفهم الموج وألقاهم على الشاطىء البعيد نثارات ..! وصار اسمهم المختار ـ المنبوذين .

فلنحاول قبل أن يبلغ الموج بنا مداه ..

ولننظر السلاسل التى صفدتنا بها الحوادث ، ونفضها .. حتى نقدر على التجديف ومغالبة الطوفان .

واذا نحن علمنا أن روح الامة يسيطر على مصايرها ومستقبلها ، وأن هذا الروح مشحون بالرواسب الضارة التى تقعده وتثقله وتخذله .. فقد استبان لنا طريق التحرر والخلاص .

تطهير الروح من رواسب الماضى . . .

وتطهير الضمير من مخاوفه .

وتطهير العقل من أوهامه .

وتطهير الارادة من سلاسله الغلاظ ..

وقبل أن نحمل مطارق التحرير ـ يجب أن نتبين مواضع الطرق

.. وقبل أن ننطلق الى الغاية مثقلين ـ علينا أن نطهر أرجلنا من الاغلال ..

ان الفساد الذي أرهقنا بمشاقه، وأعناته ـ هو الاستعمار التركي. ثلاثمائة عام سويا ..

ثم امتداده الذي تلقف منه العهد، وسار على الدرب، ولا يزال يسير. وهو الاستعمار البريطاني

ثم النظم التي تقمصتها روح الاستعمار وشهواته ليعملا عن طريقها. وأهمها البرلمان البرجوازي.. ثم النفسية الواهنة المريضة التي أثمرها الاستعمار، وقسمها على ذاتها ـ وتتمثل في الغرائز المكبلة الناقمة ..

وسنتحسس الآن بأيدينا هذه القيود، قيدا، قيدا. ولن نطيل المكث معها ـ فحسبنا أن نتبين طبيعتها، ونقف على عوامل بقائها ـ ثم نعنى العناية المستطاعة بقطعها، والخلاص منها.

طوفان رجيم ..!

ذات يوم، وأنا أطالع في كتاب « أزمة الضمير الاوربي » التقت عيناي بآية رائعة نحيت الكتاب بعد تلاوتها جانبا وشرعت أتدبر المعاني الجليلة التي تشف عنها هذه العبارة الجامعة، وبلغ من اشراقها ان اضاءت لي مابين يدي وما خلفي .. ورسمت أمامي نهجا كاملا للحرية والخلاص .. أما العبارة فهذه :

يقول فنيلون ـ « ان الغزاة الكبار الذين نخلع عليهم صفات التمجيد .. أشبه بتلك الانهار التي تفيض فتبدو رائعة، لكنها تخرب الارض الخصبة التي كان عليها فقط أن ترويها .. »

ترى كم من الغزاة الذين تطفلوا على بلادنا يجللهم هذا الوصف، ويحتويهم داخل اطاره الاسود الرهيب .. ؟

سنراهم الآن رأي العين .. اولئك الذين حسبهم آباؤنا

الطيبون أنهارا تجرى بالخصب والنماء ، فشقوا لها الارض ، ومهدوا أمامها الطريق ـ وفى أصيل يومها ومجراها راحوا ينشدون الحب والثمار ، فاذا الارض خراب يباب . . ليس فيها ما يهتز سوى نفحات القر ، وسبرات الشتاء!

لقد استحال نبعها الوديع ، وانسيابها الرقيق غربا هائجا ، وطوفانا رجيما ـ تبر الربوع تتبيرا . . !

نعم ـ هذا هو الذى حدث ـ فالغزاة الذين اقتحموا ديارنا زعموا أنهم هداة لا غزاة . ومصلحون لا فاتحون . . وأنهار غاية سعيها أن تروى الارض لتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج . . أنهار ستروى الشعب بالمعارف جميعا . . المعارف السياسية لينهض ويسود ، والادارية لينظم نفسه ويسوس أمره ، والعلمية ليشب عن طوق الجهالة . ويمضى مع الركب العليم الرشيد . .

ثم الفيناهم جميعا فى سباق جبار نحو الكذب والنكوص بقدر ما كانوا فى سباق هائل نحو الوعود المبذولة ، والمزاعم الجريئة . .

الفيناهم طوفانا وسيلا ساق أمام أمواجه العالية الصاخبة ما كان الشعب قد ناطه به من منى وأمل . . وجرف فى عنفوان وجنون بقايا جلده وتماسكه . . والتهم فضل ماخلفته الايام بيديه الضامرتين من قوت . . ثم مضى يتجشأ فى استهتار ـ ويواصل تساوقه وانحداره فى عربدة منقطعة النظير . . ! ليست هذه الكلمات شعرا ، ولا مبالغة . . ولنستمع الآن للتاريخ القريب لا البعيد ، فان لنا فيه عظة وعبرة .

ولكننا فى هذا النطاق لن نبسط حوادث . . ولن نتقصى وقائع ، فليس هذا الكتاب سجل تاريخ ـ وغاية ما سنصنع أن نرفع تجاه الابصار أعتى نماذج الاستعمار الذى عاث فى أرضنا ، وطوق أعناقنا .

الاستعمار التركى . . . والاستعمار الانجليزى

وانما نختارهما دون سواهما لأنهما أثقل وطأة ، وأشد مراما وكيدا ـ ولأنهما لا يزالان يلفاننا في مثل الضباب من احتلال بريطاني جاثم .. ومن مساوىء خلفها الاستعمار التركي ، واصطبغ بها حكم هذه البلاد .

١ ـ الاستعمار التركي ..

تركي = طاغية .. !

وحين نبدأ بالحديث عن الغزو التركي تستبد بنا طبيعتنا الازهرية التي تولع دائما بتحليل اللفظ ، وتعقب مادته واشتقاقه. وتأبى الا أن تحلل لفظ «تركي» فما هو .. ؟

ولنذكر أولا ـ أن علم النفس قد اكتشف علاقة وثيقة بين الانسان واسمه ولقبه ..

ويضرب علماء النفس لنا مثلا ـ رجلا اسمه « صعب » ، فأن دوام انصباب هذه التسمية في سمعه ، ووعيه يطبع عقله الباطن بطابعها ، ويسم أخلاقه وسلوكه بالصعوبة .. وذلك لا ريب هو سر تغيير الرسول أسماء بعض الناس الذين كانت أسماؤهم من هذا القبيل .

فقد أبدل باسم « حرب » ـ وكان يحمله بعض أصحابه « سلما » ... وأبدل باسم «أجهم» اسما آخر هو «سمح».

هناك اذن وحي مستمر توحيه أسماؤنا الينا ، ويلون الى حد كبير طباعنا ..

أيكون هذا هو سر التلازم بين التركية والطغيان ؟

ولكن ـ هل كلمة تركي ترادف طاغية ، حتى ننشد بينهما هذا التلازم والانسجام .. ؟

نعم ـ فالترجمة الحرفية لكلمة تركي هي ـ طاغية !

يقول العلامة البستاني صاحب دائرة المعارف : ـ

« وقد خرجت من جبال التابى قبائل ، وتفرقت فى انحاء آسيا العليا التى هى الآن تركستان فسماها الصينيون باسم تورکو، كما سمى الفرس بلاد تركستان باسم توران ، فكان لفظ ترك أو تورانية ـ اسما جنسيا للقبائل المتوحشة ..

وصارت كلمة توران عند جماعة اليونان تيران ومعناها طاغية .. أو عات ..

« ويذهب كثير من المؤرخين الى أن الاتراك كانوا يلقبون قديما بالمدمرين .. »

ونحن على ذلك من الشاهدين .

فلقد دمرونا باحتلالهم، وأشاعوا فينا الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .. وسنرى الآن من حكامهم طرازا مقام يوم واحد فى هجيرهم عذاب يتواضع ازاءه عذاب الجحيم ! وانها لثلاثمائة عام متشحة بالسواد والفزع لبثناها تحت وطأة هذا الاحتلال التركى .. فتعالوا لننظر ما خلفه فى ضمائرنا من قروح ، وفى أرجلنا من أغلال .. !

فمنذ عام « ١٥١٧ » ـ يوم غزا السلطان سليم بن بيازيد مصر، الى ما شاء الله من أعوام، والشعب المصرى فى باستيل تركى يروض فيه على الذل والغش والجاسوسية وفى محنة لاهثة جاست خلاله بالسلب والنهب والعلو والاستبداد .

ولقد أفاد الانجليز حين استعمرونا بعبقرية الاتراك القدماء فى البغى والفساد .. وطبقوا مناهجهم ، واقتفوا معالمهم حذو النعل بالنعل ..!

ألسنا نعتقد أن مبدأ « فرق تسد » بضاعة انجليزية خالصة؟

والواقع انه من مخلفات الاستعمار التركى . مارسه طوال عهده البغيض حتى مزقنا شر ممزق . فلما جاء الانجليز وجدوه سلاحا ماضيا فتقلدوه !

لقد كان السلطان سليم صاحب الفضل بأسوأ معاني الكلمة ـ في وضـــع هـــذا المبدأ الفاجر واستعماله . .

فقبل أن يغادر مصر الى تركيا مزق السلطة فيها الى ثلاث مزق ـ وجعل لكل منها اختصاصات تتنافر مع اختصاصات الاخرى كي يدوم الشقاق بينها جميعا .

وهو صاحب هـــذه الحكمـــة الخبيثة :

« اذا اختلف الذباب وتناحر ، ضمنت لنفسك نوما طويلا » !!

ا ـ النهب والاقطاع ..

ولقـــد شرع السلطان ســـليم لابنائه وحفدته فضيلة انتهـــاب الامم وسرقة الشعوب . . فان « جورجي زيدان » يحدثنـــا في كتابه « تاريخ مصر الحـــديث » ان هذا السلطان بعد فتحه القاهرة والاسكندرية ، وحين أزمع الرجعة الى بلاده نقل معـــه ألف جمـــل محملة ذهبا وفضة وأســـــلابا اخرى ! أرأيتم . . ؟!

لقد هام كالكلب المسعور في بلادلا تربطه بها سوى صلة التقحم والتسور والعدوان ، ومضى ينهش كل لقمة في كف ـ وكل درهم في جيب . .

وتولى الخـــلافة بعده ابنه السلطان سليمـــان . . فأعلن في فرمان رسمي « أنه المـــالك الحر لجميع أرض مصر . . » !!

ووزعها اقطاعات على مزارعين دعاهم «الملتزمين» . . نظير خراج باهظ ! . .

ووجد من الاربعة عشر باشا الذين ولاهم حكم مصر في عهده كل عون لمظالمه وتثبيت لسياسته

واذن فنظـــام الاقطاع هذا آفة تركية جاءنا بها استعمارهم القديم . . ثم لم ترحـــل معه يوم رحل ـ بل ظلت على شكل باذخ مثير . .

ب ـ الرشوة .. !

والاستعمار التركي هو الذي دنس ضمير هذا الشعب بالرشا .. فلقد وجد نفسه على دين مصابة ضخمة تنتظم الخليفة والباشوات الذين كان ينصبهم على مصر ولاة .. وكل هؤلاء يشهدون أن لااله الا الله ، وان الرشوة والانتهاب من طيبات ما أحل الله ..!

تصوروا أن الباب العالي نفسه كان يشجع الرشوة ويتقاضاها ، ويثيب عليها .!

يقول « بركهاردت » : (١)

« يطلب الباب العالي الموارد .. ولا شيء سواها . ولكي يتسنى للباشا اشباع هذه الحاجة تراه يعمد الى ارهاق الشعب ، ويضع على عاتقه الاعباء الثقال .. أما الباشا الذي يريد خيرا بالشعب ، ويقنع بالايراد العام ويجعل الغلبة في مجالسه للعدالة فانه يجلب على نفسه دون ريب سخط مليكه ـ لا لأنه عادل ، وانما لان عدالته تمنعه من النهب . ومن نقل جانب مما ينهب الى الديوان . واذا أراد الباشا أن يبقى على نفسه ، فليس أمامه من سبيل الا أن يسلم في صمت رعاياه البائسين الى عصا المستبد .

وكان الارتقاء عن طريق السرقة والرشوة » ! !

اذن ، ونحن الآن نعيد فقط كلمات هذا المؤرخ ولا نزيد ..

كانت الرشوة طريق الوصول الى قلب السلطان ، وكان الباشا الذي يريد خيرا بالشعب ، ويقنع بالايراد العام ، ويجعل الغلبة في مجالسه العدل يجلب على نفسه سخط مليكه .

---

(١) **الدولة والنظم الاقتصادية في الشرق الاوسط** ـ تعريب دكتور راشد البراوي

ويعنـــي « بركهاردت» بالمليك هنـــــا ـ السلطان التركى .. ونحن نعنى ذلك أيضا ..

كان البـــــاب العالى يطلب الرشـــوة من ولاتـــه ، وولاته يقتسرونها من الجماهير الجائعة المضناة .. لذلك كـــانت عملة متداولة مشروعة !

ويحدثنـــا كتاب « الكافى» فى جزئه الثالث :

« ان على باشا الصوفى أحـــد ولاة السلطـــــان سليمان كان يقاسم اللصوص سرقاتهم نظير حمايتهم .. مما أغرى الدهماء والخطـــــــرين بأمن الناس ..» !!

وكان خلفاؤنا الابرار يبيعون المناصب جهرة ..

فيحـــدثنا عبد الرحمن بك الرافعى فى كتابه « تاريخ الحركة القوميـــة » ناقلا عن المستشرق مارسل .

« .. ان تاريخ مصـــــر من منتصف القرن السابع عشر الى آخـــــره انحصر فى تعاقب الباشوات الاتراك على ولايتها.. فكان الواحـــــد منهم يشترى منصب الولاية من ديوان الاستانة .. ويظل الباشا فى منصـــبه لا عمـــل له الا جمـــع المـــال واستصفاؤه من أهـــله بمختلف وسائل النهب حتى يغـــــادر منصبه .. » !!

وبهذا نرى أن الحكام الاتراك الذين يقاسمون اللصوص نظير حمايتهم ورعايتهـــم .. والذين يرشـــــون ويرتشون فى وضح القانون . كانوا أســـاتذة علموا هـــذا الشعب المطيع السمسرة ، والرشوة الحرام ..!

ج ـ الغدر والارهاب ..

ولم تصب مصر بمثل ما أصابها به الاستعمار التركى المديد من

غدر مسلح ، ومؤامرات موصولة وارهاب رجيم ..!

لقد كان الولاة يتآمر بعضهم على بعض .. بل والخلفاء أيضا يتآمر الابن على أبيه ، والاخ على أخيه .. وتفننوا فى الاغتيال وحبك المؤامرات ضد الشعب ، وكانت الجريمة هى الشيء الوحيد الذى يتناولونه بيد الاستاذية البارعة المتفوقة.

ولو انك معى الآن تقلب الصفحات التى أقلبها من تاريخ استعمارهم الاسود لتولاك من الروع والوهل مثل الذى يتولانى

ان القلم ليجفل فى مسيره .. وأكاد أشم رائحة الرصاص ، وترتج سكينتى بأصداء الصراخ المنبعث من الضحايا المفرجين .! وأسأل نفسى : مم تخافين ، وقد ذهبوا ..؟

ربما تفزعها تلك الاشباح التى تتراءى من وراء جرائمهم كأنها رؤوس الشياطين . .

وربما من تلك الظلال المديدة المكتنزة التى تملأ علينا حياتنا رعبا ..!

حين تقرأ مثلا ان « محمود باشا التركى » آخر ولاة السلطان سليمان على مصر حين وصل القاهرة لقيه « محمد بن عمر » متولى الصعيد ، ومعه هدايا نفيسة ، وخمسون ألف دينار تقبلها الباشا التركى متظاهرا بالغبطة والشكر .. ثم تواصل تلاوة الخبر ، فترى الباشا التركى يأمر باغتيال « محمد بن عمر » عقب مخرجه من لدنه خوفا من منافسته .. ثم يأمر بخنق القاضى المصرى « يوسف العبادى » .. ثم يأمر باغتيال معظم أعيان القاهرة الذين انتقدوا حكمه وسلوكه .. ثم يخترق شوارع القاهرة ومعه (الشوباصى) عميد الجلادين ، يقتل بأمر الباشا رجالنا ، ويستحيى نساءنا .. عندما تطالع هذا النبأ الدامى ، فاعلم أن بجواره مئات الانباء والمذابح .. وامش

الهوينا ، فالطـــريق التى امامك مضرجة بجثث آبائنا الذين صرعوا جهـــرة ، أو اغتيلوا فى الظلام البهيم .. !

ـ دنشواى .. التركية .. !

واذا كنا نحتفظ بين ضلوعنا بذكرى مرجفـة لفضيحـة «دنشـــواى» التى أعدم فيها الانجليز خمسة من مواطنينـــا فى ظروف مصروفة .. فان هناك فى تاريخ الاتراك فضيحـــــة مشابهة .. تجعلنا نعتقـــدان الانجليـــز كانوا مقلدين فى جريمتهم للغزاة الذين سبقوهم بالقسوة والجريمة !

واذا كانت (دنشـــواى) .. التركيـــة .. لم تأخذ فى التاريخ مثـــل المكان الذى أخـــذته (دنشواى) الانجليزية ، فلأنهـا لم تكن (دنشـواى) واحدة .. بل كانت تتكرر دائمـا كوسيلة لاذلال الشعب ، واسلاس قياده حتى أصبحت من العقـــوبات العادية فى شرع الاتراك .. !

حدث ان استـــولى « محمود باشا التركى » على جميـــع تركة «ابراهيم الدفتردار» امير الحج ـ وكانت مائة الف دينار ، وجبى من النـــاس بواسطة السوط والارهاب مثلها .. ثم رفعها الى الاستـــانة ليرضى عنه مولاه .. وعـلم القـاهريون ذلك وكانوا قد التمســوا من السلطان عزله علمـــوا أن الرجل قد اشترى سلطانه وسيـــده بهذه الهدايا المنهوبة .. فكمنوا له فى الطريق وقتلوه .. وفر القاتلون .

وأرسل سوء الطالع فى هذه الطريق جماعة من الفلاحـــين لم يشـــتركوا فى القصاص من محمود باشا .. بيد أن الحاشية التركية للحاكم الصريع التمست لقتلهـم ، والتمثيـل بهم نفس الاسباب التى التمسها الانجليـز فيما بعد لاعدام ضحايا دنشواى وبث الرعب فى البلد جميعه .

ولعل من الطرائف المسلية ،التى تخفف عنا لأواء هذه القساوة أن نستمع لبعض الاشعار التى تغنى بها الناس عند ماخر ذلك الوحش التركى السائب .

أتى محمود باشا يوم نحس فساقته منيته غصبية
تجاه الناصرية خلف حبط بفيط جاءه منه مصيبة
ببندقة رماه كف رام فسددها فجاءته مصيبة . !

٥ ـ الذلة ..و العلة ..!

ورسم الاستعمار التركى سياسة لاذلال الشعب ، وافنائه .. وان ما نعانيه اليوم من جبن عقلنا الباطن ،وتوجس مزمنا وارادتنا لأثر محتوم لما أنزلوه بنا من رعب وبطش .. لقد أنشبوا قسوتهم فى الشعب وشردوا طمأنينته . وضاقت عليه المحاولات بما رحبت.. وبقيت لذلك مثلا ـ تلك القصة التى تروى عن أحد الولاة الاتراك حكم هذا الوالى على مصرى بالاعدام .. وعند التنفيذ شدوا وثاقه ،و ربطوه الى سارية . . ثم سألوا : الك حاجة قبل أن تموت ؟ ..

قال : نعم .. أن أنقل الى سارية أخرى ..

ففصموا وثاقه .. واذ هو فى طريقه الى العمود الثانى ، توفى الوالى الذى حكم بأعدامه . وولى الامر بعده وال جديد .. الغى حكم الاعدام ، وافرج عن المصرى المسكين ..!

ان هذه القصة لم تقع ،وانما اصطنعها آباؤنا ليصوروا بها مبلغ القهر الذى أخذ بخناقهم . وهوان الامل الذى ناطوا به خلاصهم . فالجماهير المضطهدة المغلوبة على أمرها بعد أن عجزت عن مواجهة جباريها بوسائل عملية حاسمة ذهبت تتمنى .. وتتخيل ،وحتى خيالها كان مكبلا يدور فى مدار ضيق مساحته تلك الاشبار التى تفصل بين ساريتين ..!

ومن هنـــا اذن جاء هذا المثل الذى ترتله الملايين اليوم : «من خطوة لخطوة .. يأتى الله بالفرج» .

انه تعبير آخر كتلك القصـــة التصـــويرية عن بغى الاستعمار التركى الذى حـــرم الناس حتى من رحابة الامل ..!

وكان للاسقام والافناء سياسة مرسومة كالسياســـة المرسومة للاذلال ..

ولكن ماصـــالح الاستعمار فى اذلال النـــاس بالعلة ، وافنائهم بالجملة وهـــو فى حاجة اليهم ليخدموه ..؟

والجـــواب على ذلك ـ ان سليمان بن سليم كان قد اصدر الفرمان الذى جعل نفســـه به المـالك الاوحـــد لجميع أرض مصر ـ وهو لن يزرعها بيده طبعا فأعطاها .. للملتزمين .. نظير ضرائب فادحـــة لاتبقى للملتزم سوى مسكه الرمق ولكن هـــذا القليل المتبقى للملتزمين لم ينج من أطماع سليمان . غير الحكيم . فاشترط ان تؤول اليـــه جميع تركات المتوفين الذين لاعقب لهم ولا وارث ، وبقى هـــذا المرسوم نافذا بعد خلافته ومماته .

ثم تطـــــاول العهد ـ فكان الباشوات الاتراك يجبون هـــذه التركات لأنفسهم ، ولير شوا بها السلطان أيضا ـ فاشتد حرصهم على ان يمـــوت أكبر عدد ممكن من هؤلاء الذين تتوافر فيهـــم الشروط ..!

وطبعا لا سبيل لتمييزهـــم فأتاحوا للاوبئـــة ان تتخذ من بلادنا مـــزارا ووطنـــا لتحقيق لهم الغرض الدنىء .. ولتعصف بكل محاولة للمقاومة والنضال .

ومن هـــذا الاحصاء المتواضع ندرك مبلغ ماكان بين الاوبئـــة وبين حـــــكم (آل عثمان) من صداقة وائتلاف ..!

ففى عام ١٠٢٨ اجتاح مصر طاعون صرع ستمائة الف نفس

وفى عـام ١٠٣٥ اجتاح مصر وباء صرع ثلثمائة الف نفس

وفى عـام ١٠٥٠ اجتاح مصر طاعون خرب مائتين وثلاثين قرية

وفى عام ١٧١١ اجتـاح مصر طاعون اسماعيل ـ وصرع ستين الفا . . (١)

هذه الاوبئة المنقضة الموصولة جعلت من آبائنا الاقدمين ـ حملة ميكروبات ـ للوهن والسقـم توارثنـاها . . ولا تزال أرحام الامهات تنشق كل يوم عن نماذج واهنة لتلك الوارثات .!.

ونلاحـظ ان الاستعمار الانجليـزى قد ورث فيما ورث عن سابقه هذه المؤامرة السفيهة المتوحشة . . فسلط علينا وباء الكولـيرا فى أعقاب الحرب حتى لا نجـد قوة نثور بها فى وجهه . . ورفض رجـاء الحكومة المصرية فى منع القيادة البريطانية عن بيع فضـلات الطعام الملوث بالاوبئة المتبل بالامراض . . وحتى الوقت الـذى نكتب فيه هذه الكلمات لاتزال بريطانيـا ترفض حق مصر القانونى فى انشاء محطة رقابة صحية بمنطقة «فايد» كى تتمكن من اشراف صحى كامل على وسـائل المواصلات فى تلك الاراضى المصرية . . !

***

ولم تكن وسيلة الاذلال لدى الاستعمـار التركى ـ السوط وحده ـ بل والسلوك أيضا . . فالوالى التـركى ذو سلوك خـاص مع الشعب . . سلوك يمتاز بالصلف والغطرسـة والتعالى ـ وهو نوع السلوك الذى كان السلطـان يعامل به الولاة والرعايا . .

فالسـلاطين حـين يخاطبون الولاة والباشوات يقولون :

« . . أما بعـد ، فقد تمت ارادتنا السنية الشاهانيـة

---

(١) تاريخ الحركة القومية ـ ج أول ـ عبد الرحمن بك الرافعى

(كـــذا) فاذا اردت اكتساب رحمتنـــا الملوكانية ، فتعال الى اعتابنا ، واقســـم على طاعتنا ،والاخلاص لنا .. »

هكذا يخاطب السلطان الولاة ثم تتم مراسم الهوان بالسعى الى اعتـــابه والقسم بين يديه على الطاعة والاخلاص ..!

وهـــم اذا خاطبوا الشعب لا يوجهون الحـديث اليه لهوان شأنه ..

بل يخـــاطبونه بواسطة الباشوات قائلين :

«بلغوا عبيد بابنا العالى » ..!

ثم لكى تكون سيادتهم مقدسة وعبودية الرعـــايا ضربة لازب يعلنون فى قحة انهم «اعتلوا عرش اجدادهـــم الامجاد طبقا للاوامر الواردة من ملك الملوك » ..! ولم يكن هناك مايربطهم بملك الملوك جل شأنه سوى هذا الانتحال .

لقـــد راض الاستعمار التركى رعاياه على الذل . وراض ولاته على التزلف ، ويمثل الاخـــــير أصـــدق تمثيل خطاب الخديو توفيق المرفوع منـــه الى الصدر الاعظـــم بمناسبة تعيينه مكان والده المخلوع .

نحن الآن مع الصفحة «٢١٦» من الجزء الرابع لكتاب الكافى فى تاريخ مصر . وأبصارنا تقترب مشدوهة لتقرأ :

«وصل ليد التبجيل تلغرافكم السامى الآمر ان فراغ **محسوبكم** والدى المحتـــــرم عن الحكومة المصرية . وتوجيهه مقام الخديوية من **محض جليـــــل عواطف** الحضرة الملوكانية لعهدة **رقيقكم** همـــا من مقتضى عالى ارادته السنية السلطانية . وبالحقيقـــة أن تكرم حضرة صاحب الخلافة **الاقدس الذات** بتوجيـــه مقام الخديوية لعهـــدة هذا **العبد** كان دليلا على وجود **عبدكم** مشمولا بفيض النظر الملوكانى ..

« فلذا رفعت الى مقر اجابة الرب القدير أكف الادعية الخيرة ببقاء عمر ، وعافية ، وارتقاء شـــــأن ، وشوكة الحضرة السلطانية . عالما علم اليقين أن سلامة الخديوية المصرية وسيادتها وموفقية عبدكم الكاملة يحصلان بالثبـــات على قدم العبودية والتابعية السلطنة السنية . » !

من هذا الذى يتكلم .. ويكرر كلمة عبـــدكم ورقيقكم مرات عديدة .. ؟

أهو فرد عادى من الشعب .؟

انه الخديو يبـذل تواضـــعه بسخاء .. لان السلطان التركى لايقنع بدون هـذا التواضع من تابعيه وموظفيه . ونستطيع على ضوء هـذا الخطاب أن نتصور مبلغ اعتداد الشعب بشخصيته ـ اذا كان هـــذا مبلغ اعتداد خديويه وحاكمه ونستطيع أيضا أن نقف على تفسير علمى صحيح لقول توفيق للمصريين «أنتم عبيد احساناتنا » واختياره كلمـــة (عبيد) بالذات ..

انها عمليـة تعويض لاغير .. وهو فيها معذور .. لقد تواضع كثيرا للذين فوقـــه فلابد أن يتقاضاه من الذين تحته .. من الجماهير والرعايا ..!

و ـ الخداع بالدين ..!

ولم يترك الأتراك وســـيلة يستغلون بها الرعايا الا انتضوها واذ كان شـعبنا متدينا عميق التدين ، فقد استغلوا فيه هذه الفضيلة اسوأ استغلال ..

فالسلطان سليمان الذى جرد الأمة من جميع أرضها وأملاكها . جاد عليها بكثير من المســاجد والكنائس التى بناها ..! وفى الوقت الذى وقـع فيه فرمانا يجعله «المالك الحر لجميع أرض مصر » ..

وقع فرمانا آخرهذا نصه : «لاتخرج امرأة قط الى الاسواق والشوارع ولومتنقبة الاالعجائز .. ومن خالفت تضرب، وتربط من شعرها فى ذيل حمار ويطاف بها فى القاهرة » ! !

وفرمانا ثالثا : « نطلب من الناس جميعا أن يسيروا بمقتضى الشريعة ـ ويعملوا بموجب السنة » !

يا سبحان الله ! !

نهب واقطاع .. ثم دعوة الى القرآن والسنة ..!

عتو وفجور . ثم تشييد للمساجد والمعابد ..!

هذه شجاعة ضمير لا يقدر عليها سوى الأتراك احد . ان خالق هؤلاء وخالق نيرون واحد

فحين ولى «نيرون» الامبراطورية الرومانية ، قدمت اليه اوراق محكوم عليه بالاعدام لتوقيعها ، فبكى .. بكى نيرون وصرخ : ليتنى ما تعلمت الكتابة ..!

ولكنه فى الفصل الثانى من الرواية .. رواية حياته الآثمة ، سفك دم أمه بيمينه .. واحرق روما وهو يقهقه أمام مشهد صاخب من مشاهد الجحيم .!

ان الحكام الأتراك كذلك .. يؤمنون أول النهار ، ويكفرون آخره .. ويخدعون الشعب بمجاملة نزعة التدين فيه ثم يأكلون حرثه ونسله، ويسومونه سوء العذاب ..

والشعوب حين تبتلى بهذا اللون من السلاطين ، ولا يكون فيها رجل كالعز بن عبدالسلام يقرع الجرس ويبيع أمراء المماليك بالمزاد .. فان عاقبة أمرها تكون خسرا . . وهكذا كان عصر الاستعمار التركى لمصر وللعرب .

ألم تر مرة أو مرات .. رجلا يشكو ويئن ، فيقول له صديقه متهكما أو مسليا : ادع للسلطان بالنصر ..! ان لهذه الكلمة

الدائمة قصة فى تاريخنا القديم الحديث .

فقد دخل امام أحدالمساجد ليخطب الجمعة فى عهد بعض السلاطين الأتراك . فوجدالمصلين جميعا رقودا يئنون . . فسألهم عن سر هذه المظاهرة الصامتة فأجابوه : ان الباشا هاجم بيوتنا ومعه « الشوباصى » والجند ، وانتهبوا ما فيها من حبوب وقوت زاعما أنه سيرسلها الى جيش السلطان .

فسألهم الشيخ : أليست جيوش السلطان تحارب الكفار؟

أجابوا فى سذاجة : نعم !

قال الشيخ : اذن ـ ادعوا للسلطان بالنصر .!!

وذهبت مثلا . .

ولقد أفاد نابليون من هذه التجربة يوم غزا مصر، فاستغل الدين ورجاله وشهدت شوارع القاهرة منشورات كبيرة هذا نصها:

«نصيحة من علماء الاسلام بمصر»

« . . نخبركم أن الطائفة الفرنساوية بالخصوص من بقية الطوائف الافرنجية . يحبون المسلمين وملتهم . . وهم أصحاب لمولانا السلطان . قائمون بنصرته، وأصدقاء ملازمون لمودته . . يحبون من والاه ، ويبغضون من عاداه . . ولذلك بين الفرنسيين وموسكو غاية العداوة الشديدة وهم يعاونون حضرة السلطان على أخذ بلاد الموسكو ان شاء الله . . » !

ان استغلال الاستعمار التركى للدين لم يكن مصادفة ولا اتفاقا . . بل هو ثمرة خطة واعية هادفة أصاب البلاد منها شر وبيل . . بل وكان الدين نفسه مجنيا عليه فيها .

وآية ذلك ما لا نزال نراه من التعصب ضد المرأة باسم الدين ـ فليس هذا من الاسلام فى شىء . . ولكنها الخرافة الدينية التى روجها الأتراك . . وأصدروا بها فرمانا ومرسوما

وعلينا أن نعيد تلاوة مرسوم السلطان « سليمان » الذى مر

بنا آنفا .. والذى حرم به على المرأة ان تخرج لحاجتها ولو منتقبة .. ومن فعلت تربط بشعرها فى ذيل حمار .!

أهذا هو الاسلام الذى خاطب رسوله النساء قائلا : « ان الله أذن لكن ان تخرجن لحاجتكن » وأباح لهن الخروج حتى بغير نقاب وحجاب .؟

لكن أمة تعيش ثلاثمائة عام فى ظل الجهالة التركية، والتنطع التركى والسيطرة التركية لابد أن تثمر مانعانيه اليوم من رجعية وانحطاط وتعفن .!

***

لقد قال أحد الخلفاء الأتراك: «سأصنع بكم كما يصنع قيصر الروس برعاياه » مخاطبا شعبه وشعوب مستعمراته .! فماذا كان يصنع القيصر .؟

هنا سيتبين صدق قولنا ـ ان استغلال الدين كان خطة مرسومة ،ولم يكن مصادفة طارئة

فقد كان القيصر ـ أى قيصر ـ بارعا فى استغلال دين بلاده.

وكان رجال الدين فى الكنائس يصلون بالناس «صلاة القيصر»

أيها القيصر ..

نحن عبيدك المخلصون ..!

يا ظل المسيح ..!

ويا روح الحق ..!

نعيش لخدمتك ..!

ونطيعك فيما تقول ..!

وهكذا أراد الأتراك أن نعبدهم من دون الله .. وأفهمونا ، وهم يتولون الملك كابرا عن كابر، أو صاغرا عن صاغر .. انهم كما يقول الفرمان « يتولون العرش طبقا للاوامر الواردة من ملك الملوك » !

ن ـ الاستعمار التركي ـ والجهل

وهذه الأمية التي لاتزال لطخة سوداء في وجه مصر أثر من امجد آثار الاستعمار التركي ، واحقها بالاشادة والتنويه ..! فقد عاشت مصر امواميها الثلاثمائة محرومة من الثقافة والمعرفة.. ودبر الاتراك مؤامرة للاجهاز على لغة البلاد.. وأسموا اللغة العربية «لغة الفلاحين» وكانت اللغة التركية لسان السادة والقصور ..

ولا تزال مظاهر هذه الاستهانة بلغة البلاد ماثلة أمامنا ـ فعلى بعد خطوات منا، وفي داخل القصور السعيدة المترفة ـ يعيش أقوام لا يعرفون عن لغتنا القومية شيئا سوى انها الهمهمة التي تتحرك بها شفاه الرعايا .. وتضطرب بها مشافر القطيع حين يكلم بعضه بعضا ..!

ولقد كانت مصر قبل استعمار الترك واحة يأتلق فيها علماء نوابغ كابن اياس وابن خلكان والمقريزي وابن حجر وابن العميد والذهبي والدميري وابن نباته وصاحب «صبح الاعشى» وسواهم

كذلك كانت مهاجر الاحرار المفكرين حين يمسهم في بلادهم نصب واضطهاد . فقد هاجر اليها ابن خلدون وابن تيمية وابن القيم وآخرون .

فلما جن ليل الاتراك، وكان ليلا بهيما ، ران الجهل على البلاد وعاش قرير العين في حمى حلفائه واصدقائه الأتراك ..

ترى هل كان اضطهادهم للعلم تشيعا للجهل ..؟

هنا تلتقي بكارل ماركس ، على غير موعد بيننا .. حيث تضيء لنا الطريق، نظريته التي يرد بها جميع الظواهر والاشياء الى أسباب مادية واقتصادية.

فلقد كان للمدارس أوقاف كثيرة يانعة . تلفت الأتراك نحوها ثم قالوا : يا ليت لنا هذا الطول العريض .. وما أسرع

ما تتحقق لهم الأمنيات .. فنهبوا أوقاف المدارس ، وباعوا جميع المكتبات الكبرى التى كان الفاطميون قد خلفوها وجاوز جشعهم واستكلابهم كل حد .. فاقتلعوا أبواب المدارس، وأخشاب النوافذ والسقوف ثم باعوها .!

يقول على باشا مبارك فى «الخطط التوفيقية» «.. أهمل أمر المدارس .. وامتدت يد الأطماع الى أوقافها، واحتجزت مرتبات المدرسين والطلبة والخدم ففارقوها جميعا وانقطع التدريس فيها، وبيعت كتبها، وانتهبت. فخربت وصارت زرائب ..» !

لماذا ننبش القبور ..؟

هل تظن ، وأنت تقرأ هذه السطور .. وتستعرض بعض مشاهد الماضى ، انك امام عرض تاريخى .. أو حديث نزجى به الفراغ ، ونملأ به الصفحات .؟ لا ـ انت أمام غرض أجل ، وغاية اسمى ..

ونحن ننبش قبر الاستعمار التركى حقا لنكتشف الاوتاد المطمورة تحت ترابه والتى لاتزال تصلنا بها سلاسل وأغلال .. أن نشوء الجريمة يلقى ضوءا ناصعا على أطوار نمائها، وعوامل تشبثها بالبقاء ..

ونحن شعب تعيث فيه جرائم الاستبداد السياسى، والاستغلال الاقتصادى ، والأقطاع المتفشى، والرجعية المنحدرة ..

وتحتل نفوسنا عقد غليظة تحملنا على الخنوع والعجز والاضطراب ..

ويجثم فوق ظهورنا ماض موقر بالأوزار يوبقنا عن الحركة ويعتاقنا عن التقدم ..

فليس لنا بد من تطهير آبارنا

ان علماء الاجتماع يقررون أن «روح الأمة يسيطر على مصايرها ومستقبلها »

والأمة .. ما هى ؟

انها ليست جيلا يقيم على ارضها ثم يزاور ويختفى ـ بل هى تيار بشرى متساوق الموجات، يجرى لا مستقر له .. وكل موجة فيه دافعة مدفوعة .. مؤثرة متأثرة ـ معطية آخذة .. وهى فى نقل تطورها تأخذ من ماضيها وتصب فى حاضرها ـ وتتدفق نحو مستقبلها .

وما لم ننظف روحنا المسيطر من رواسب الماضى فسنظل دائما نعيش فى ذلك الماضى برجعيته وفساده واستبداده .. وسيظل الشعب جاثيا تحت الاثقال التى أنقضت ظهره ، وهدمت قواه

لابد لنا من روح جديد مطهر من ذكريات الاخفاق والفشل .. تسويه وتنفخ فيه ضرورات حاضرنا ، وتبعات مستقبلنا ..

واذا لم نصنع ، فسنظل امتدادا لظلمات الحكم التركى . ومطايا ذللا تحمل فوق ظهورها أخطاء وأعباء ماضيها .. وقطيعا أبله ، يضطرب فى المرعى القاحل ويدور .. يرى هشة العصا فيتراكض .. ويصك الزحام بعضه ببعض فيتهارش .. والراعى هناك فوق الهضبة السامقة ، يسوس القطيع بنظراته الزاجرة .. وهو يقلب بيديه البضتين شرائح الشواء على المدفأة .. حتى اذا غص بطنه الكريم .. ألقى على القطيع نظرة فاحصة .. واستل سكينه المخضب ، وخاض بين قطيعه المطيع .. يتخير منه ذبيحا آخر .. لوجبة اخرى ..

فلنغادر الماضى . .

وان هذا العرض «السيكولوجى» للحقبة التى قضيناها فى قبضة الاستعمار التركى لتكشف عن المأساة .. المأساة التى تتمثل فى اننا ـ الدولة والشعب ـ لا نزال نعيش فى ذلك الماضى السحيق .. وان كل نصيبنا من التقدم ومزاملة الزمن .. بل كل مايربطنا بالحياة المتجددة السيارة هو تواريخ الشهور والاعوام ...

فنحن نؤرخ وجودنا الآن بعام «١٩٥١» بيد اننا نعيش فى عام «١٥١٧» حيث بدأ الاحتلال التركى ، وفيما تلاه من أعوام وقرون ..

فالعجز السياسى .. والرجعية الاقتصادية .. والانهيار الخلقى والشعب المستسلم .. والحكم الأقراطى .. والفساد الادارى .. والحريات المصادرة . واستغلال الدين .. كل هذه الخطايا تقترف اليوم بنفس الهمة العالية التى كانت تجترح بها فى تلك القرون ..

ودلالة هذه الحقيقة المؤسفة اننا لانزال نعيش فى ظل الاستعمار التركى .. صحيح أن اشخاصه اختفت وطواها التراب .. ولكن اخلاقه وشمائره لايزالان يثمران كل ما أثمراه بالأمس من فساد

فاول اغلالنا التى تصفدنا ـ هذا الماضى .. فلنغادره ، ولنصنع لنا حاضرا جديدا حرا باسلا

وستكون فصول الكتاب الآتية بمثابة القنطرة التى نقترح اقامتها لنعبر عليها .. مغادرين هذا الظلام ، ميممين وجوهنا شطر حياة تستحق أن تسمى حياة

والآن ـ فالى ثانى أغلالنا .

٣ ـ الاستعمار البريطانى

ان الفساد التركى الذى أوجزناه فى السطور السالفة .. كان القنطرة التى عبر عليها الينا الاستعمار الانجليزى

وبقاء آثار ذلك الفساد . هو العامل الاوحد فى بقاء الاستعمار الانجليزى . .

فالاثنان مرتبطان نشوءا ، وتطورا ، وبقاء . .

وهذه حقيقة يجب أن تملأ منا البصائر والاذهان

عند ما بدأت الامبراطورية الباغية ـ التركية ـ تترنح تحت وطأة الترف الذى بددها ـ والفتن التى مزقتها .. كانت

طبائع الاشياء تهيب بسيد جديد كى يتقدم ليستولى علينا . . وكان هذا السيد هناك . . وراء الحوادث ، واقفا يترقب . .

لم يكن نابليون . . فقد ذهبت محاولته فى نفس الطريق الذى ذهبت فيه محاولة لويس التاسع فى القرن الثالث عشر . . وكان هذا الناهب الجديد . بريطانيا

لماذا دخلت بلادنا . . ؟

لقد أعلن الجنرال «هتشنسون» بلسان حكومته أن القوات البريطانية جاءت لتثبيت سلطة الباب العالى . . اذن فالاتراك هم الذين ادخلوهم ديارنا بعد أن قبلوا حماية الانجليز لهم من الفرنسيين أولا . . ثم من الشعب ثانيا . . وأعلن الانجليز انهم مسئولون عن حماية الباب العالى ومنافعه ونفوذه .

وقبل أن يغادروا مصر هذه المرة احتفروا وقيعة غائرة بين الاتراك الذين يدعون الحرص عليهم وبين المماليك . . ثم أوعزوا الى «محمد الألفى» أن يذهب الى لندن ليطلب معونة الانجليز وحمايتهم . . !

وهذه هى اللعبة التى ظلت بريطانيا ولا تزال تلعبها لتبقى مصر منطقة نفوذ لها . .

فقد تكررت فى المؤامرة التى أوقعوا فى حبائلها توفيق وعرابى وذهبوا يمثلون نفس الدور مع احمد عرابى موعزين اليه ان يطلب حمايتهم كما صنع الألفى سابقا

فيحدثنا شاهد عيان هو «شاروبيم بك» فى الجزء الرابع من كتاب «الكافى»

« . . وتقدم كوكسن نائب القنصل الانجليزى من احمد عرابى أمام قصر عابدين فى يومه المشهور وقال له : ان كنت تخشى شيئا فأنا كافل لك أنت ومن معك حفظ أرواحكم وعيالكم وأموالكم ، وجميع ما لكم من الرتب والقاب الشرف . . » !

أراينا ..؟ انها نفس اللعبة القذرة التى دخلوا بها .. وعليها الآن يتكئون ويرتكزون ..

ولقد أجاب عرابى جوابا جديرا بمصرى أصيل فقال :

« بورك فيك أيها السيد ، كيف تحفظ أرواحنا وأموالنا وعيالنا وأنت نفسك غريب تعيش فى حفظنا وحمايتنا ..!؟ » وأراد عرابى أن يبالغ فى احراجه واذلاله .. فقال :

« وكيف تستطيعون حمايتنا وقد وعدتم بها وممكم فرنسا ، اسماعيل صديق باشا .. ثم لم تدفعوا عنه مرارة الكأس التى شربها قهرا ..؟! »

ان عرابى يومذاك كان يمثل كل الوراثات النبيلة والاصيلة التى نبض بها تاريخ هذا البلد الطويل

وماذا عليه لو دخل فى حماية « كوكسن ، وكولفن » كما صنع الآخرون .. ؟ ـ ان وطنيته الاصيلة ترفض هذا الهوان .

الكلمة الثانية ..!

وسمر الانجليز الفتنة وأججوها .. وتقدم ممثلهم فى مصر من عرابى وسأله :

ـ ماذا تفعل اذا لم تجب مطالبك .. ؟

أجاب ـ أقول كلمة ثانية ـ

ـ وماهى هذه الكلمة ؟

أجاب ـ أقولها عند القنوط .

وعمل الانجليز على أن يقنط أحمد عرابى فحرضوا عليه الخديو وعندما قال كلمته الثانية كانت الشوارع تموج بالدم والاشلاء

ثم كان منشور الخديو والخليفة التركى يتلى ويذاع مبشرا بعصيان عرابى ومن معه ..

ثم توالت المشاهد تترى فى تناقض عنيف ..

فالخديو توفيق يعود الى عابدين من الاسكندرية .. وان موكبه ليتهادى بين صفين طويلين من جيوش بريطانيا الغازية .. وفى نفس الوقت يدفع أحمد عرابى بأعقاب البنادق الى غرفة مظلمة فى قشلاق قصر النيل ..!

والخديو توفيق يشرف الوليمة الكبرى التى دعا اليهـا القوات البريطانية ويجلس بجوار الدوق « أوف كانوت » تحت العلـم البريطانى الذى يخفق خفقـات التحـدى والازدراء .. حتى اذا فرغوا من الطعـام قام بين عزف الموسيقى وقرع الطبـول ليقلـد نيشان « النجمـة المصرية » كل جندى انجليزى شهد موقعتى كفر الدوار والتل الكبير ..!

وفى نفس الوقت كان أحمد عرابى هنـاك .. يستمع الى عريضة الاتهام :

« يا أحمد عرابى ـ لقد أتوا بك أمام هذه المحكمة بصفة أنك متهم بالعصـيان والخروج على طاعة « الذات الخديوية » وعقابك على هذه الخيـانة يكون بمقتضى كل من المادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمـانى ، والمادة التاسـعة والخمسين من قانون الجزاءات الهمايونى » !

ومشهد آخر ...

فعلى جدران البيوت والشوارع الصق هذا المنشور الكريم ـ

« ارادة سنية لكافة أهالى وسكان مصر »

« لما كانت الدولة البريطانية لها بالقطر منافع كبرى ماليـا وماديا ولا سيما بالنظر الى قنال السويس ، فقد أخذت على عهدتها التدخل الفعلى لقمع المفسدين دون أن تمس حقوق السلطة السنية ، والامتيازات المصرية ...

« ولتحققنا أن نيتها ومساعيها فى الظاهر والبـاطن ليست الا الاصلاح .. قد رخصنا لحضرة القائد العمومى للجيش الانجليزى

بالتحول نحو جموع العصـــاة ، واستعمال الوسائل القـــاهرة لتبديد شملهم وسرعة القبض على رءوسهم ..

« وبما أن العساكر الانجليزية يعدون فى هذه الحالة نائبين عنا فى قطع دابر المفســـدين فانهم جديرون بالمعاونة والمساعدة .. وعلى كل مصـــرى يحب وطنه ويخشى خرابه أن يعاملهم لقاء حسن نياتهم بالاكرام اللائق بهم ولا يتأخر أحد عن مساعدتهم » !؟

ثم دار الزمن دورته ، ووقف محمود فهمى النقراشى بمجلس الامن صـــارخا فى وجه ممثلى بريطانيا

ـ اخرجوا من ديارنا أيهـــا المتطفلون ..

فينهض رجل عملاق فى برود وثبات وسخرية .. وأشار بيده كالســـهم ... كأنه يومىء الى تاريخ غير بعيد وقال :

ـ أيها الســـيد .. اننا لم نتطفل على بلادكم .. ولكننـــا دعينا فأجبنا الدعاء ..!

وأغلـق النقراشى فمـه ... ودارت برأسه الكلمات .. وصرخ فى أعماقه صرخة مكتومة ، فقد ذكر كل شىء ، وأفاق ..!

لو سارت الامور كمـــا يريد عرابى وتوفيق .. أكان سيحدث هذا الذى حدث ..؟

لا نظن .. ولـكن الانجليز أرادوها فتنة صاخبة ليتسللوا فى دخـــانها المتكاثف داخل بلادنا

وقد كان .. وهذا درس بليغ فلنذكره حتى نعود اليه بعد حين

الانجليز وجيشنا !

قرر الانجليـــز أن يكـــون استعمارهم قفصا كبيرا يسجن فيه طموحنا وآمالنا .. فرسموا من أول الامر ســياسة اضعاف الجيش ـ حتى نظل هوانا يسام ـ لا قوة تسيم ..

ولذلك كان منشأ حقدهم على عرابى وتعجيلهم بتسديد الضربة

الى مصر ، محـــاولته النهوض بالجيش ، واربائه الى ثمانية عشر الفا ..

ولذلك أيضا رأيناهم يلغونه ويسرحونه غداة انتصارهم على عرابى ـ واختصروه فى لـــواء صغير جميع ضباطه من الانجليز

ومحوا العلـــوم الحربيـــة والعسكرية كلها من المدرســـة الحربية التى كانت تخرج لنـــا الضباط ..

وهم الذين تعهدوا فى معاهدة ســـنة ١٩٣٦ بتسليح الجيش وقبل أن يجف مداد المعـاهدة ـ ويتلاشى من الافق صدى طلقات المدافع الفرحة .. وردوا لنـــا « ذخيرة كذابة » لاتصلح لصيـــد العصافير ..!

وهم الذين عثروا يوما بسلاح طيراننا على (٥٠٠٠) قنبلة ثقيلة فاقترضوهـــا ... ثم أبوا أن يعيـــدوها حتى اليوم .. وهم الذين حرموا علينا استيراد أسلحة من دولة كروسيا .. ثم امتنعوا عن بيعنا أســـلحة قبضوا فعـلا أثمانها ..! وهم الذين فزعتهـــم محـــــاولاتنا الاخيرة ، فجاءوا باسرائيل لتحاربنا ونحاربهـــا ، وفى قلب الملحمـــة تخلـوا عن التزاماتهم حيالنا . لا مجـــاملة لاسرائيل كما نتوهم فى سذاجة وغباء ... بل لغرض آخر ، هو تعريض جيشـــنا لهزيمة ماحقة تذل كبرياءه ، وتزلزل ثقة الامة فيه ، وثقته بنفسه ..

ونحـــن على يقـين ، أن تلك السرقات والآثـام التى اندملت عليها حملة فلســـطين ـ كانت بتدبيرهم غير المباشر .. واغرائهم غير المرئى .. وتحريك مطامع الجناة وشهواتهم دون أن يعرف أحد حتى الجناة أنفسهم .. المحرك الاول لهذه الشـــهوات .. وهى خطة هادفة .. أراد بها الانجليز أن يحدثوا بها هزيمة معنوية بعد الهزيمة المادية التى كانوا مؤمنين بها .. وفى الوقت المعلوم ونحن ننادى بقدرتنا على حماية خطوطنا ومنطقتنا وندعوهم للجلاء ... كشفوا الغطاء عن الخبء الكريه وقالوا : هاأنتم هؤلاء ..!

ان سفارة انجليـــزية ـ غير رسمية ـ سفارة مجهولة تعمـل في بلادنا عمل الجبارين لتصيبنا بشر ما يمزقنا . وهم فى هـدم الجيش يصدرون عن سـياسة تقليدية لهم أوصـاهم بهـا (غلادستون) يوم قال : حذار أن تسلحوا الجيش المصرى ..!

الانجليز .. ووحدتنا .!

والانجليز الذين أثاروا الفتنة بين العثمانيين والمماليك ليسوغوا بقاءهم .. ثم حملـوا الالفى على الاستنجاد بهم ـ ليكون بقاؤهم مشروعا من الجانبين ـ جـانب السلطان وجانب المماليك .

والذين فرقوا بين توفيـــق وعرابى ليعودوا بجيوشـــهم ويحتلوا البلاد احتلالا عسـكريا مدبرا ...

هؤلاء هم الذين أغروا سـعدا بعدلى ، وعدليا بسعد .. وأقاموا سياستهم على بث الحقد وتعميقه فى نفوس بعض الزعماء على بعض .. وبعض الجماعات على بعض

ليس الخـــلاف في الرأى هو هدف الانجليز ـ فالخـلاف فى الرأى لايضير .. ولكنه الحقد والخصومة واللدد ..

وسنظل ضحايا هذه الخصومات السود مادام للانجليز فينا نفوذ .. وهم حين يعجزون عن النفاذ الى وحدة الامة باحدى وسائلهم الكثيرة ، ينفذون من الزاوية الحادة غير مكترثين

ان نبيهم « دزرائيلى » يناديهم من مكان غير بعيد :

« لا بأس بالغـــدر والكـذب والوقيعة ، اذا كانت هى الطريق !

الانجليز .. وحريتنا .!

ولقـد اضطهدونا اضطهادا موصولا ـ ولايزالون ـ وساموا حرية الشعب ســـوء العذاب ، واصطنعوا لانفسهم حثيات من الذين تجرى فى عروقهم مصرية مستعارة وسلطوهم على الجماهير وأحاطونا بحصار قاس ظلوم ـ فـلا نتصـــل الا بالدولة التى

يختارونها ٠٠ ولا نصادق الا من يصادقون، ولانعادي الا من يعادون

حتى حرية البيع والشراء ٠٠ حرموها علينا ٠٠ ولقد اشتروا قطننا ذات عام بعشرة جنيهات للقنطار الواحد ـ وباعوه على بعد خطوات منا بخمسين ٠٠٠ في السودان !

بل حتى حرية الاحتفاظ بالعرض والشرف ٠٠ سلبوها منا ٠٠ ففي وزارة محمد محمود باشا الاخيرة ـ هم بالغاء البغاء فمنعه الانجليز قائلين :

ـ وأين يقضي جنودنا وطرهم ؟

أي أنه لابد للدولة بعد أن استبيحت أرضها وسيادتها ـ أن تقدم للغزاة نساءها بنفس السماحة التي تقدم بها غذاءها وكساءها ٠٠ !

وقد يتكلف الانجليز اليوم التسامح والحلم ٠٠ لاننا صامتون ٠٠ ولكن هذه الاردية الكاذبة تنضيها عنهم المقاومة حين تكون ٠٠ ففي ثورة « ١٩ » لم يتركوا موبقة الا اقترفوها قتلوا ٠٠ وصلموا الآذان ٠٠ وسملوا العيون ٠٠٠ وهتكوا الاعراض في عربدة معدومة النظير ٠!

وكل الذي نعانيه اليوم من قهر واختناق ، بقية من القوانين التي وضعوها ٠٠ والتي أوحوا بها ٠٠ لتكبيل حرية القول وحرية العمل ٠٠

ويجب أن نعلم أن الاستعمار البريطاني يقف وراء كل اجراء شاذ تصادر به حريات الشعب وتسفه به رغباته ٠٠ وحين نتحدث عن واجبنا ازاء هذا الاستعمار في الفصل الاخير ستزداد هذه الحقيقة تألقا ونصوعا

٣ ـ البرلمان البرجوازي

ان الاستعمار البريطاني ذكي ٠٠ وهو ، وقد ورث مخلفات سلفه البغيض ـ الاستعمار التركي ـ حاول أن يصوغ هذه

الاســـاليب القديمة في أخرى مستحدثة ٠٠ وأن يسكب الفساد القديم والبغي القديم والمكر القديم في قوارير جديدة ثم يقـــدمها لرعاياه شرابا سائغا ٠٠

واذا كانت الشهوات ـ كما يقول أندريه موروا ـ في حاجة الى أجساد تتقمصها كي تعمل ٠٠ فان الاستعمار البريطاني لم يقنع بتقمص الاجساد ٠٠ بل تقمص النظم والقوانين كذلك ٠٠

فقد عاونا على أن تكون لنا حياة نيابية ، ولكنه وقد شهد ميلادها ـ بل وساهم في خلقها ٠٠ صاغها كما يريد ـ لا كما تريد ضروراتنا وطموحنا ٠٠

فالحياة النيابية الانتهازية ٠٠ والبرلمـــان الاقطـــاعي يوما ، والبرجوازي يوما آخر ٠٠٠ هو الغل الثالث الذي يقيد حياتنا ويعتاق نمونا ٠٠

ونحن لانعني برلمانا بعينه ، ولا هيئة نيابية بذاتها ٠٠ نحن نعني روح هـذا النظـــام التي تتقاصر دون حاجات الشعب ولا تسعفه بما يريد ٠

فالاثرياء والمحظوظون لا يمكن أن يمثلوا كل التمثيل شعبا حالفه الجوع والحرمان ٠٠

ولكي نخلص من اثبات هـذه الحقيقـة أولا ـ ونثبت أن الذين يتحدثون من زمن بعيد باســم الفقراء ـ ليسوا ٠٠ بل لم يكونوا ساعة واحدة من أعمارهم فقراء ـ نطالع أسماء أعضاء أول مجلس نيـابي ـ ثم ماتلاه من مجـالس وهيئات ٠٠

ان أول مجلـس كان مجلس شورى النواب الذي تألف عام ١٨٦٦ ٠٠ وكان ندوة للطبقـة البرجوازية الرفيعة في البـــلاد ٠٠ كان جميع الاعضاء من العمد ٠٠ وكان العمد يومذاك يمثلون الصف الثاني ـ أما الصف الاول فالاقطاعيـون الكبـــار ٠٠ وأما الثالث فالشعب البائس المحروم

فمديرية الغربية نجد ممثليها في المجلس من طراز اتربى بك أبو العز

على كامل ـ عمدة القصرية

الحاج شنتا يوسف ـ عمدة أبي مندور

الحاج محمد حمودة ـ عمدة برما الخ ...

ومن مديرية المنوفية نجد : ـ

الحاج على الجزار ـ عمدة شبين الكوم

محمد افندى شعير ـ عمدة كفر عشما

على أبو عمارة ـ عمدة مليج

وعن الشرقية نجد :

بركات الديب ـ عمدة القرين

محمد افندى عفيفى ـ عمدة الزوامل

عبدالله عياد ـ عمدة كفر عياد

وعن أسيوط نجد :

عثمان غزالى ـ عمدة بنى رزاح

يوسف محمد عمر ـ عمدة الشيخ تمى

عبدالعال موسى ـ عمدة دروة

وهكذا عن بقية المديريات .. كلهم عمد وأعيان ..! (١)

فاذا جئنا البرلمان الذى انتخبه الشعب سنة ١٩٢٤ وكان أول هيئة نيابية دستورية ـ وجدنا الباشوات والاعيان أيضا .

فاذا سرنا على الدرب ألفينا نسخا متعددة لطبعة واحدة أو طبعات متعددة لكتاب واحد .

---

(١) عصر اسماعيل ـ عبد الرحمن الرافعى بك

فتارة نلتقى مثلا بأصحاب السعادة :

أحمد ذو الفقار باشا

أحمد زكى أبو السعود باشا

احمد على باشا

اسماعيل سرى باشا

حسين خيرى باشا

وتارة أخرى نلتقى بسـ : ـ

حسين شريف باشا

محمد أفلاطون باشا

محمد العبانى باشا

حسن حسيب باشا

عثمان محرم باشا

محمد البدراوى عاشور باشا

وهكذا تسير منذ بداءة الحياة النيابية حتى اليوم بين صفين طويلين من الباشوات والاعيان . فاذا بلغت الهيئات النيابية الحديثة وجدت نفس الظاهرة ..

واسامى الآن اسماء خمسة من أعضاء مجلس الشيوخ لهيئة برلمانية حديثة ـ خمسة فقط يملكون ـ

	قيراطا	فدانا
	١٧	٦٥٠٠٠

ونحن طبعا ، لا نفكر حين نعرض هذه الظاهرة فى التنديد بهيئاتنا النيابية ، ولا بأعضائها . وانما نتساءل فى ضوء هذا الواقع

هل يمكن لهذه المنظمات النيابية أن تمثل شعبا تسعة أعشاره من الحفاة العراة ؟

هل يمكن أن يوافيها الاحساس الصادق بآلام الجماهير الكادحة؟

هل يمكن أن تسعى لحرية الشعب وحقوقه كاملة .. وهي تعلم ان كل حظ من الحرية يناله ينقص من حرية الاعلين، وكل حق يأخذه ، يصيب ثراءهم العريض بالنحول ..؟

ان البرلمان البرجوازى ليس أكثر من تضامن الاعضاء مع الحزب الحاكم لتبادل المنافع والمآرب ..

والحياة النيابية لا تكون حياة .. قوية نابضة ، الا اذا كانت معبرة عن جميع خصائص الشعب .

وانا لنجد من الوقائع والتجربة ما يؤكد اعتقادنا بأن هذا التخبط الذى أصبنا به فى الحقبة الاخيرة من حياتنا انما سببه الاكيد سوء تمثيل الحياة النيابية الشعب .

وحسبنا ان نسأل : ـ

ماذا كان يحدث لو وجد بمصر فى عهد اسماعيل برلمان قوى يمثل الشعب ، لا يمثل حفنة من أصحاب المصالح والاطيان ؟

وخير جواب على هذا هو سؤال آخر :

ماذا حدث ، ومجلس شورى النواب يومذاك يمثل ذوى المصالح والاطيان .. ؟

حدث ان اقترض اسماعيل :

١ ـ عام ١٨٦٤ ـ ٢٠٠ر٧٠٤ر٥ من الجنيهات بحجة مقاومة الطاعون البقرى ـ ثم ترك الطاعون يعيث فى البلاد والعباد ..

٢ ـ واقترض عام ١٨٦٥ ـ ٣٠٠ر٣٨٧ر٣ من الجنيهات ليشيد بها قصر «ميركون» على ضفاف البسفور .

واقترض عام ١٨٦٦ ـ ٠٠٠ر٠٠٠ر٣ ليشترى بها أملاك الاميرين مصطفى فاضل ، ومحمد عبد الحليم كى يتخلص من منافستهما له

واقترض عام ١٨٧٠ ـ ٠٠٠ر٠٠٠ر٣ دفعها رشوة

للاستانة كي يظفر بلقب «خديو» وسافر ببقيتها الى باريس .

واقترض عام ١٧٧٠ ـ ٧٫١٤٢٫٨٦٠ لينشيء بها مصانع السكر الخاصة به ، وبمد سكة حديد زراعية تربط اطيانه المترامية بعضها ببعض .

واقترض عام ١٨٧٣ ـ ٣٢٫٠٠٠٫٠٠٠ رهن قبلها بعض مصالح الحكومة

وهكذا ظل يقترض حتى بلغت قروضه ١٢٦٫٣٥٤٫٣٦٠ من الجنيهات ـ (١)

حدثت هذه القروض المفجعة التى أروى بها اسماعيل هواه . وملأ الارض قصورا ـ فشيد قصر عابدين ، وسراى الجزيرة ، وقصر القبة ، وقصر حلوان ، وسراى الروضة ، وسراى الاسماعيلية ، وسراى الرمل ، وسراى الزعفران ، وقصر رأس التين . وعشرات أخرى سواها

وحدث ان جاع الشعب . لتشبع حفنة رديئة تعد على أصابع القدمين من بطانة اسماعيل وحاشيته التى يحدثنا عبد الرحمن بك الرافعى فى كتابه ـ عصر اسماعيل ـ انها كانت من الفرنسيين والايطاليين والانجليز الذين لفظتهم بلادهم فوجدوا فى بلاط الخديو مرتعا وملاذا !..

وحدث أن أرهق الشعب بالضرائب ارهاقا منقطع النظير ، حتى جعل على الاغنام ضريبة ، وعلى الحمير ضريبة .. !

والآن : نعود ، فنسأل ـ ماذا كانت هيئاتنا النيابية ستصنع ، لو أنها تمثل جميع الشعب . . وآلام الشعب .. ؟

كانت ستكره الحكومة يوم امتنع الانجليز عن تسليح جيشنا على أن تتجه فورا الى دول أخرى نوع تلك الدول التى لجأت اليها انجلترا وامريكا يوما ما .

***

(١) عصر اسماعيل ـ الجزء الثانى عبد الرحمن الرافعى بك

كان سيحدث عند مانزل «شاهنشاه ايران» عن جميع أطيانه الشعب أن تسبق الحوادث التى قد تستجيش أحقاد الشعب ، فتطالب الى آلهة الاقطاع فى مصر أن يتشبهوا بالرجال .. ويردوا الأمة أرضها .

***

كان سيحدث عند ما أذاعت محطات العالم وكتبت صحفه « ان مكاسب كازينو ايفيان القمار قد زادت عام ١٩٥٠ ٧٠٪ عن الاعوام السالفة بفضل الباشوات المصريين الاغنياء الذين يذهبون الى بحيرة ايفيان باحثين عن الاشياء المثيرة » .

أن يصرخ البرلمان فى وجه الحكومة ..

من هؤلاء الباشوات .. ؟ وكم من ملايين الجنيهات أخذوا معهم ليشتروا بها لهوا عابثا ..؟

أفنعجز هنا عن ان نحاسب (باشوات) .. وهناك فى بريطانيا يقف بعض أعضاء مجلس العموم يحذرون الحكومة من أن تتحمل نفقات رحلة ملكى انجلترا الى جنوب افريقيا .. ولم يسكتوا حتى وافاهم وعد من الملك بأن نفقات الرحلة ستكون من جيبه الخاص ..؟!

نعم ـ ماذا كان يحدث أيضا لو أن برلمانات الشعب هى الشعب ..؟

كان سيحدث ، عندما تقدمت الحكومة طالبة اقرار مشروع قانون يفصل بين الشعب والقصر ..

قانون يجعل القصر الملكى «منطقة حرام» ويحرم على الامة أن تتحدث عن مليكها بغير تصريح من وزير ـ أن ينتفض ويقول :

كيف يتحكم الوزير وهو موظف .. فى شئون القصر وأخباره فيجعل بعضها حلالا ـ وبعضها الآخر حراما ..؟ كان سيحدث أن يصرخ برلمان الشعب ..

نحن مصر .. ومصر ترفض أن تحاصر أخبار مليكها ، مصر ترفض أى سور يقام بينها وبين عرشها .. مصر ترفض أن تلتقط أخبار الملك من أفواه الاذاعات الاجنبية المغرضة ، والصحف المحرفة ..

ان الله ذاته لم يجعل الحديث عنه حراما .. وان اخبار الملك وتصرفاته السامية ليس فيها ما يخجل أو يريب .. حتى نضعها تحت رقابة وزير .. ! وعندئذ كان هذا القانون سيلقى نفس المصير الذى لقيه قانون الاشتباه ..

***

وكان سيحدث أن يطلب الى الحكومة الوقوف الحاسم الصارم فى وجه المهربين الذين سربوا أموال الأمة الى سويسرا حتى انخفض سعر الجنيه المصرى بالسوق الحرة بنسبة ٢٥ ٪ فى الصيف الماضى ..

***

كان سيحدث يوم اعتدى الانجليز على شرف الأمة اعتداء مسلحا ، وزجوا بالكثير من أبنائها فى المعتقلات أن يقوم البرلمان نفسه بالثورة ، ويكره الحكومة عليها ولكن انى يكون ذلك ووراء كل هيئة نيابية من هيئاتنا جميعا دنيا عريضة من المصالح تذود عنها ، وتعمل من أجل بقائها وانمائها ..؟

كان سيحدث طوال هذه الاعوام التى قضيناها فى مفاوضات عابثة ، والتى وعدنا الاستعمار البريطانى خلالها بالجلاء مائة مرة ـ ثم كذب علينا مائة مرة أن يجتمع أعضاء « البرلمان » ـ أى برلمان ـ ويعلنوا بطلان معاهدة (٣٦) ويقرروا أن جيوش بريطانيا الرابضة فى القنال ـ جيوش معتدية يجب طردها ـ ويقرروا ايضا انه لاقيمة للحياة النيابية تحت خفق الاعلام البريطانية .. واذن فيغلق البرلمان ، ويخرج أعضاؤه الى الشوارع والقرى ليقودوا الشعب كله الى معركة الحرية والاستقلال

٤ ـ الغرائز الناقصة

والآن ـ الى القيد الرابع ـ وهو الغرائز العاقدة المتربصة ـ والحقيقة أن غرائزنا مجنى عليها .. وجانية . .

لقد جنينا عليها بالكظم ، والقهر ، والاضطهاد . . فانقلبت الى قوات شريرة شرسة حين تفزع .. والى مخدر مثبط منيم حين تهجع .!

وقبل الاستطراد فى الحديث عنها نسأل : ما الغريزة .؟ يعرفها علماء النفس بأنها سلوك فطرى خاص ، يقوم به صاحبه فى ظروف خاصة ..

أو هى .. ميل فطرى يحمل صاحبه على عمل أو اعمال خاصة عند ظهور مؤثر خاص ..

ويضربون لنا مثلا ـ الغضب ـ انه استعداد جسمى عقلى موروث يحمل صاحبه على الانتفاض حين يتعرش به عدو معتد ، أو طاغية أثيم ..

ويعرفها علماء التربية والاجتماع بأنها الارادة الكامنة وراء كل عمل يأتيه الفرد أو الجماعة ..

نعم ـ الغرائز ارادة ، وبقدر ما تكبت غرائز شعب تكبت ارادته ، وتطمر حياته ..

ودراسة التاريخ الانسانى تزكى اعتقاد المعتقدين بأنها قوة قاهرة . . بالغة أمرها . . لا تنال منها الهزيمة منالا ، وهى حين يختفى نشاطها فى سورة كبت أو ضغط . . فليس هذا دليل انصراعها . . بل تكون آنئذ فى دور تهيؤ للانقضاض والانتقام

انها راسخة رسوخ النوع الانسانى ..

وفطرية تجرى من البشرية كلها مجرى الدم ..

ومريدة لا راد لمشيئتها ..

وضرورية لبقاء الفرد والنوع معا

ولسنا نملك تجاهها سوى بذل المحاولات لتعليتها، وتقويمها

انها قوى الالهام والابداع ، ولكننا فى مصر والشرق نسىء بها الظنون ـ شأننا دائما مع كل شىء نجهله أو نتهيبه .. ونمضى نطاردها ونخنقها ـ دون ما ندرى اننا نطارد الحياة ونخنق فينا ارادة الحياة ..!

وقد يحسبنا القارىء مسرفين حين نقول : ان تحرير أنفسنا ، وتحرير أوطاننا ، وتحرير عقولنا ـ كل هذا منوط بادىء الامر بتحرير غرائزنا . بيد انه لن يلبث خلال مزاملته هذا السطور أن يفىء الى هذا الرأى، ويسرف مع المسرفين ..!

والآن .. لكى نستبين قيمة الغريزة ، وأثرها فى الحضارة الانسانية نضرب مثلا غريزة الخوف ..

فلقد أنشأنا المدارس ـ خوفا من الجهل ..

ووضعنا الدساتير ـ خوفا من الاستبداد ..

وأقمنا الحكومات ـ خوفا من الفوضى ..

وأنشأنا المستشفيات، ونبغنا فى علوم الطب ـ خوفا من المرض

وأقمنا المصانع والمخترعات ـ خوفا من العوز ..

وتحلينا بالفضائل ، وجانبنا الرذائل ـ خوفا من الله ..

وخطونا نحو الاشتراكية ـ خوفا من الشيوعية ..؟!

وهكذا أفضت بنا غريزة واحدة ـ هى غريزة الخوف الى هرم باذخ من الثروة المادية والادبية ـ ولكن شعبنا العانى، تعانى غرائزه محنة لا تطاق ـ هى نفس المحنة التى يعانيها الشعب من كبت وحرمان ـ وكثيرا ما يتبادر الى بعض الاذهان أن اطلاق الغرائز معناه العربدة والفجور.

وهذا أثر وهم موروث .. وجهالة مزمنة، فاطلاق الغرائز

يعنى اطلاق القوى الهائلة التى أودعت فينا لتعمل وتثمر ..

وهذا الكتاب يضيق حجمه، وتضيق أغراضه عن حديث مسهب مستفيض فى الغرائز.. وهو يحصر حديثه عنها فى بعضها الذى تتمثل فى كتبه مشكلة بلادنا

ونعنى بهذا البعض :

غريزة الغضب ..

غريزة النفور ..

غريزة الاقتناء ..

غريزة «أنا» .. وتشمل حب الثناء وحب الظهور

نزعة «الشركة الوجدانية»

فهذه الغرائز، وأخواتها عامل أساسى فى طبيعتنا ، وهى تسمو، أو تنحط تبعا للغاية التى تجند لها، والوجه الذى تستخدم فيه

ولكن انحطاطها يكون مؤكدا ومضمونا اذا وكل الى القهر أمر تهذيبها ..

فاذا حرم على الشعب أن يغضب ، وحرم عليه أن ينفر مما يكره ، وحرم عليه أن يذكر نفسه ويعتد بها ، وحرم عليه أن يمتلك ويقتنى .. فلماذا يعيش ..؟ ولنبدأ بـ :

١ ـ غريزة الغضب :

ان وظيفتها المحافظة على النفس

ومثيرها ـ وجود العدو ..

والعدو المثير لها فى الجماعات هو ـ الاستعمار، والاستبداد ، والقوانين المتسفة، والاستعباد الاقتصادى .. اذا وجد شىء من هذه ، أو جميعها فى شعب فلزوم يغضب .. ان غضبه هذا صمام الأمان ـ ومحاولة زجره عن الغضب ، كمحاولة

اطفاء النار بقاذفات اللهب ..! ولسنا بذلك ندعو الى شغب أو فتنة ـ بل الى سكينة وسلام .. وانما دعاة الفتنة والثورة بحق هم أولئك الذين يتحدون طبائع الاشياء ، ويحاربونها بقانون ..! وما أحوج هؤلاء الغلاظ الى درس فى التاريخ ، ليعلموا انه كان وراء كل ثورة كاسحة ، وانقلاب مدمر ، واعصار وبيل ـ ركام هائل كثيف من القوانين حسبوها زاجرة قاهرة فاذا هى وقود الثورة وحطب الانقلاب ..!

لقد ساهمت احزابنا جميعا، وحكوماتنا جميعا فى قمع هذه الغريزة لدى الشعب فماذا حدث ؟

حدث أن ترنحت بادىء الامر تحت الضربات المتساقطة فوقها كالرجوم ، فعجزت عن توجيه طاقتها ضد المستعمر الدخيل .. ثم استيقظت ـ فاذا طاقتها جميعها قد استحالت الى حقد اسود على الذين اضطهدوها .. وهم للأسف مواطنون من ساسة وحكام ..!

ولو تواصت حكوماتنا بغريزة الغضب خيرا لحدث النقيض .. كانت طاقتها ستتجه صخرية كاسحة الى المستعمر ، فتلفظه من بلادنا ـ ثم اذا لم تجد منارهقا ولا اعناتا تتسرب فى مجال نافع ، وتعبر عن نفسها بمقاتلة العجز ، ومباراة الطبيعة لاستثمار أرضنا وسمائنا وهوائنا ..

وانه لمن دواعى الاسف والفجيعة ـ أن يقدر الانجليز هذه الغريزة قدرها، ويتوسلوا بحسن التفاعل معها الى بقاء استعمارهم وتنحية أحقادنا عنه

فحين استجاش حفائظنا حادث دنشواى تركونا نغلى كغلى الحميم ـ حتى اذا أوشك البخار الحبيس على التفجير والانقذاف ـ رفعوا الغطاء ، فتسرب البخار والهواء

وكان ذلك الغطاء ـ كرومر .. فنقلوه من مصر !

ولما وضعت الحرب الاخيرة أوزارها ، وأخذ غيظنا الكظيم

من حادث ـ ٤ فبراير ـ يتراكم ويتجمع ويتحفز ، وارتج الاناء بالبخار الهتاج ـ خطوا نحوه خطوة .. ورفعوا الغطاء

وكان هذه المرة .. كليرن .!

ولكن حكامنا ـ كبارا وصغارا ـ لا يؤمنون بعلم النفس ، ولا يريدون أن يعرفوا اللحظة التى يجب أن يرفع فيها الغطاء .! لقد كبلت هذه الغريزة وكبلنا معها ـ بمجموعة من القوانين ، وبالارهاب الموصول ـ فما المخرج من هذه القيود .؟

عندما نتحدث فى الفصل القادم عن الحرية سنبسط الطريق لتحرير هذه الغرائز العاملة المنشئة ـ أما هنا فنحن فقط نحدد مظاهر اضطهادها ، وما يترتب على ذلك من مخاطر وآثار ..

ان حكوماتنا من طراز عجيب

فهى تبطش بنا مع الباطشين ، وتقول : حذار أن تغضبوا ..

وهى تدعنا نهب السارقين والناهبين ، وتقول : حذار أن تغضبوا ..

وهى تسلبنا حرياتنا وتقول : ويل لكم ان تغضبوا ..!

هى تسلبنا الحلم .. وتحرم علينا الغضب ..! حتى أصبحنا نعصف بنا الحوادث ، وتذرونا ريح العذاب ، وتصفعنا قوى الشر بأيديها ، وتركلنا بأقدامها .. فنرفع أبصارنا الخاشعة الذليلة تجاه السماء .. فتبصق السماء عليها .. ثم تردها الى الارض دامعة خجلى ..

أو لايذكر الزعماء والحاكمون يوم كانت تصيبهم بما صنعوا قارعة .. فيستصرخوا بالشعب .. ويخرجوا له كل يوم نداء وبيانا ، فلا ينظر ، ولايسمع ، ولايجيب ، ولايغنى عنهم شيئا .؟!

انهم الملومون .. فهم الذين أخرسوا فيه صيحة الغريزة

بقوانين القهر التي ساهموا جميعا في خلقها .. واحالوا طاقتها الى حقد عليهم ، وعلى كل المعاني التي يمثلونها ، والقوى التي يساندونها ..

لقد نصبت حكومة عراقية مشانق الاعدام لشباب باسل حر غضب من اجل بلاده على الانجليز المستعمرين ـ والانجليز المستعربين ! .. ودقت حكومة اليمن اعناق مواطنين غضبوا من ضلال الاستبداد ، وضراوة الفجور ، ووحشية الضمير .. واقامت حكومة لبنانية من نفسها خصما وحكما .. واهدرت حيوات شباب غضب من الرجعية السياسية التي تريد ان تلف الشعوب في مثل الضباب .. !

ومثل ذلك في سوريا .. وأمثال ذلك في الحجاز .. ثم يراد من تلك الشعوب المقهورة الغرائز وقد هاض قلبها جبروت سادتها ، ورهبوت قادتها ان تغاضب المستعمر وتجالده .. ؟!

ان كل سياسي يكبل غريزة الغضب في أمته بالارهاب والقوانين لخائن أعظم ، وافاك أثيم ..

والحديث عن الغضب كغريزة واجبة الاحترام والرعاية ، حديث يلتبس فيه الحق بالباطل عند فئام من الناس .. وقد يبارك هذا الفريق كبت الغضب وقهره ومقته . وقد يتفضلون فينعتوننا بالالحاد لاننا ندفع عن الغضب كغريزة .. بينما الدين يستهجنه كاثم وجريمة ..

وعفا الله عنهم ـ سلفا ـ وانهم لمخطئون ! !

فالدين ينهى عن الغضب ، كما ينهى عن الضحك .. بمعنى ان الاسراف في كليهما خطأ وفراغ . ثم هو ينهى عن الغضب الفردي الذي يثيره التحرش بحق شخصي تمكن حمايته بالتودد والرفق .. ثم هو ايضا يعنى باستهجان الغضب ـ التمادي والتطرف ، وازجاءه على وجه فيه طيش ونزق وعدوان ..

ولكنه لاينهى عن الغضب حين يكون استجابة طبيعية هادفة

لصيانة حرمات الشعب وحقوق الجماعات

فهذه عائشة زوج الرسول تقول :

« ما غضب رسول الله لنفسه قط .. فاذا انتهكت لله حرمة ، فلا أحد اشد منه غضبا ! .. »

ان حرمات الشعب كحرمات الله — فحين تنتهك ، وتتسورها الذئاب يصبح الغضب بوسائله المشروعة طبيعة وواجبا . .

ولقد غضب الله ذاته فى موقف مشابه ..

فحين جابه أبو لهب رسول الله بقوله : تبت يداك . . الهذا جمعتنا ..؟ تقاذف الوحى فى سرعة البرق ، ورجم الصواعق .

« تبت يدا أبى لهب وتب .. ما أغنى عنه ماله وماكسب .. سيصلى نارا ذات لهب .. »

فاذا قام فى الشعب من المستكرهين الجبارين من يتبه ، ويعنته كان جزاؤه تتبيتا واعناتا

غريزة النفور .. !

ومن الغرائز التى حرم الشعب من نشاطها المنشىء ، وانكفأت من طول اضطهادها تعمل ضده ، لا معه — غريزة النفور ..

وانا لنسأل :

هل يمكن ان يساق الانسان الى طعام كريه . ؟

هل يمكن ان يقبل مختارا على شراب مرير يتجرعه ولا يسيغه . ؟

اننا ندعو الحاكمين ان يجربوا ذلك ، ولو مرة ..

خذوا لقمة عفنة .. او حشرة دسمة .. وضعوها فى أفواهكم وامضغوها ، وتلمظوا بها ، واستحلبوها . . ثم انظروا ما سيحدث ..

سيحدث طبعا تقزز ونفور وغثيان ..

واذا دلف اللعاب الى الجوف بشيء من هذه اللقمة الكريهة فسترفضها الامعاء في عنف فيحدث تجشؤ وقيء

ان هذا الطعام القذوف يصور لنا قوة الغريزة بوجه عام ـ وغريزة النفور بوجه خاص . .

ويدل في معناه العميق ـ على ان النفس البشرية ترفض بمثل الطريقة التي ترفض بها المعدة . . كل نظام يرهق كاهلها ، وكل ارادة تكبل حريتها ، وكل مستوى معيشي يزري بآدميتها . .

وان ضمير الشعب ينفر من كل جور ، وغدر ، ونهب ، وتفاهة . .

ولكن شعبنا الاسيف محرم عليه ان ينفر ، ومحرم على غريزة النفور ان تؤدي وظيفتها

مطلوب من الجماهير ان تبسط يدها الى اللقمة العفنة ، او الحشرة الدسمة . . ثم تدسها في فمها ، وتستحلبها كما تفعل بأي شيء حلو لذيذ . . !

اي فارق بين هذا ، وبين اكراهها على الاقبال على نظم لا تريدها ، واوضاع لا ترضاها ، واشباح غريبة لا تعرفها ولا تألفها . . ؟

اي فارق بينه ، وبين تجريعها المظالم المريرة المتمثلة في حكم الفرد ، والاقطاع الفاحش ، والرجعية الراكضة . .

والام نعزو هذا التعفن والبلى والجمود في حياتنا السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية . . ؟ .

ولكن قبل ذلك . . هل في حيواتنا هذه تعفن ، وبلى ، وجمود . . ؟

نعم . . واكثر من نعم . . !

نعم . . رغم تلك القصور الشاهقة ، والبنايات السامقة ،

رغم تلك المربات الفاخرة ،والحفلات الساهرة .. فما هذه وحدها مظاهر البعث والتجديد !

ان بعث الامة ونشورها يتمثلان قبل كل شيء في تجديد حياتها السياسية ، ونظمها الاقتصادية ،ومسايرتها ركب الحضارة وموكب الايام . .

ولقد راينا في بداءة هذا الفصل كيف كانت سياستنا ، واقتصادياتنا ومجتمعنا . . وهي صورة حياتنا الماثلة ، مخلوطة ببعض الالوان الزاهية الملتمعة . .

ما ذا طرأ علينا من تغيير وتطوير . . ؟

كنا بالامس « عبيد الباب العالى » . .

ونحن اليوم — عبيد الحزب الحاكم . . ! أي حزب . .

كنا بالامس نعيش في بلادنا « ملتزمين » وكان السلطان هو «المالك الحر لجميع ارض مصر» .

ونحن اليوم نعيش ايضا « ملتزمين » وعشرات الاسر والبيوتات هي « المالك الحر لجمع ارض مصر » . . !

كنا بالامس لا نملك نقد الوالي ولا معارضته ولا تقويمه . .

ونحن اليوم لانملك نقد الحاكم ولا تقويمه .

كنا بالامس ضحايا النهب ،والرشوة ، والاستغلال . .

ونحن اليوم كذلك أيضا

كنا بالامس نجلد بالسياط ،وليس فينا برلمان . .

ونحن اليوم نجلد بالسياط ،وفينا برلمان . . !

كنا بالامس مسلوبي الحرية ،والارادة . . وليس لنا دستور ،

ونحن اليوم مسلوبو الحرية ،والارادة ، والكرامة . . ومعنا دستور . . !

كنا بالامس أمة مستعمرة باكراه ..

ونحن اليوم امة مستعمرة بمعاهدة .. !

كنا بالامس أمة تتربص بأعدائها

ونحن اليوم أمة تتربص بنفسها .. !

كنا بالامس شعبا تلهبه السياط فيتقاذف الى امام ..

ونحن اليوم شعب تلهبه السياط ، فيتراكض الى وراء .!

كنا بالامس نقبل اقدام سادتنا ونعتذر لانفسنا . بأنهم وضعوا فيها قلوبهم ..

ونحن اليوم نقبل اقدامهم .. ونعتذر بأنهم وضعوا فيها قلوبنا !

كنا بالامس امة معزولة عن العالم . لا تعتمد الا على نفسها.

ونحن اليوم امة فى « هيئة الامم » تعتمد على غيرها .. بل على اعدائها .. !

هذه حقائق أمرنا .. فى امسنا ويومنا . . اما ماوراء ذلك من زينة وزخرف . فليس اكثر من طلاء اردناه ليستر مقابح الماضى الذى نعيش اليوم فيه ، فازداد نصاعة وبيانا .. !

ونعود نسأل :

الى اى شىء نعزو هذا البلى والانحطاط والجمود .. ؟!

انه فى نظرنا ثمرة تعطيل غريزة النفور فى المجتمع ، وتحويل طاقتها الهادفة الى نكوص واضطراب ..

فدور هذه الغريزة فى التطور الانسانى من اهم الادوار واخطرها .. وبها يتأتى التجديد المستمر .. والانشاء والابداع ..

فتنفور الانسانية من الدابة . حفزها الى اختراع العربة ، فالقطار ، فالطائرة ..

ونفورها من حياة البادية والكوخ .. دفعها الى انشاء المدينة وتشييد القصور ..

ونفورها من الظلم افضى بها الى العدل ..

ونفورها من الاتوقراطية . . دفعها الى الديموقراطية . .

ونفورها من الاستعمار . . قذفها نحو الحرية . .

ونفورها من الاستغلال . . ادى الى الاشتراكية . .

ونفورها من الانقراض . . حتم عليها المسايرة ..

ونفورها من الحرب . . دفعها لنشدان السلام . .

فلو اننا اطلقنا سراح هذه الغريزة ، وتركناها تؤدى الدور الذى وجدت لادائه ، وعاونا ها فى نضالها . لكنا اليوم امة اخرى .

ان الحكم المطلق يعتمد فى عمله لبقائه على اضعاف هذه الغريزة ليموت فى الشعب كل احساس بالمساوىء وتتبدد كل محاولة للتغيير

فالشعب الذى تحول فيه طاقة هذه الغريزة عن وجهتها ـ يصير مأساة مفردة ، وكارثة متفوقة ..

لانه يقع به الظلم .. فلا ينفر منه الى العدل .. !

وتعضه الفاقة .. فلا يفر منها الى الرغد .. !

وتهوى على ظهره السياط . . فيزداد انحناء لتلقيها ..

وتسلب اللقمة المعجونة بدمعه من فمه .. فلا يقلب كفيه على ما انفق فيها ..

وهذا غاية سعى المستغلين والمستبدين . . انهم لا يريدون شيئا آخر سواه ..

فاذا كنا اليوم نريد لبلادنا تجددا وانبعاثا .. فلننفض عن غريزة النفور وعن اخواتها ـ قيودها الظالمة ، واغلالها الآثمة .

ج ـ غريزة أنا ..

منذ ثلاث عشرة سنة تقريبا ، كنت استمع مع جمع غفير ، الى محاضرة متوهجة ، كان يلقيها الاستاذ محمد توفيق دياب .. وكان من عباراتها . . كلمات لا تنسى ..

« . . انظروا فيما حولكم من الامم ، تروا مواكب العز والسيادة .. وتسمعوا الانجليزى يقول : انا انجلترا .. والفرنسى يقول : انا فرنسا ، والالمانى يقول : أنا المانيا . . فمتى تستمع المصرى يقول : انا مصر .. ؟ »

سمعت هذه الكلمات فى ناشئة العمر وحداثة السن ..

وظل العقل الباطن امينا عليها حفيظا لها . . حتى وجدتها تبرق الآن فى خاطرى على غير موعد او انتظار ..

ونحيت الورق جانبا ، وشرعت اتصور مرة اخرى ذلك المشهد فى قاعة « الليسيه فرانسيه » . وعلى مسرح القاعة ، وقف الرجل كأنه كرة ملتهبة تتقاذف ذات اليمين وذات الشمال .. والى تجاهه جلس حشد من المستمعين تمسه الكلمات مس الكهرباء فيجلجل ويصيح .. !

ثم عدت الى الساعة التى انا فيها .. وساءلت نفسى :

ترى هل استطاع المصرى بعد هذه الاعوام ان يقول : أنا مصر ؟

أم هى لاتزال امنية من الامانى والاحلام .. ؟

ان غريزة حب الذات وتوكيدها احدى الغرائز التى وقعت فى اسر الظلمات ـ وحيل بين الشعب وبينها .. كما حيل بينها ، وبين طاقتها ووجهتها ..

انها سليقة من اتبل وانفع سلائق الانسانية . . والذين تآمروا عليها فى بلادنا ليسوا فقط الاستعمار والاستبداد . . بل ومعهما ـ او ربما قبلهما رجال الدين الذين لا يفقهون الدين ..

ورجال التربية الذين لا يحسنون التربية . .

فقدمضى هؤلاء واولئك يلقنون الناس ان احتقار النفس وبغضها ونسيانها . . هو الهدى والفلاح !

وقالوا لهم ، فيما قالوه ، ان الله لم يطرد ابليس من الجنة الا من اجل كلمة واحدة قالها هى : انا . . !

وهناك اطنان من الكتب تدور جميعها حول هذه الافكار الرديئة المدبرة . . وينسى اولئك المربون والمعلمون ان الرسول قال : انا . . انا سيد ولد آدم ولا فخر ، قالها دون ان تنقص من تواضعه شيئا

اننا شعب مستضعف . . لان فيه ضعفا . .

ومستعبد . . لانه يحس العبودية ويركن اليها . . !

وسر ذلك اطفاء احساسه بنفسه ، وتحطيم اعتداده بذاته ، وقمع «غريزة» الانانية المستثيرة الرشيدة فيه . .

وهذا الموظف البسيط الذى يرتجف امام رئيسه . . يمثله فى نطاق اوسع . . الامة كلها عندما ترتجف امام مذلها ومستعمرها !

وتمثله ايضا عندما تتهاوى تحت مسواد القوانين الزاجرة الراعبة دون ان تملك ازاءها حولا

وتمثله حين تنماع شخصيتها وتتلاشى فى كل فكرة تطرق بابها . . وكل دعوة تستثير حماسها . . وكل استعمار يزور ديارها دون ان يكون لها عاصم من ريث واناة . .

وتمثله كذلك حين تتهافت على ارضاء حاكميها ، وتهتف بحياة قاتليها . . !

لقد كان اعجب ما صادفنى وانا اقرأ تاريخ امتى ان سلطانها الحاكم بأمر الله ادعى الالوهية ايام اصابه مس الغرور والجنون وامر باعداد « سجل تشريفات » ليستقبل اسماء المهنئين للحاكم ، والمؤمنين بألوهته البلهاء . .

ولم تغرب شمس اليوم الاول حتى كان دفتر التشريفات قد

غص ، وازدحمت صفحاته بتوقيعات وبصمات سبعة وعشرين ألفا من الشعب المبرور .. !

ثم رجعت البصر الى عصرنا هذا الذى نعيشه ، فوجدت نفس المشهد يتكرر مع كل حكومة تؤلف وعهد يقوم .. بل وجدت مائة ألف او يزيدون — ينتظمون الموظف والعامل والجامعى المثقف يستقبلون « كليرن » بعاصفة من التصفيق تصم الآذان ، وهو يطل عليهم من شرفة مجلس وزرائنا .. كأنه القمر ليلة البدر .. !

ثم وجدتهم يحملونه على الرؤوس والاعناق .. كل ذلك صبيحة الامسية الظلماء التى اقترف فيها — ببسالة نادرة — جريمته وحصاره . .

لو كان هذا الشعب تعلم من زمان . ان يقول : انا .. وجرت من روحه وعصبه وكيانه مجرى الدم . . لنهض فى اهابه كائن من الحرية والكرامة والكبرياء يترفع عن كل صغار .. ويستعصى على كل اغراء واذلال . .

غريزة الاقتناء ..

عند ما كان الاتراك القدماء يملكون مصر ، استدعى أحد ولاتهم فلاحا امتنع عن دفع المكوس المفروضة ، وسأله :

— لماذ لم تدفع المكوس أيها الفلاح ؟

فأجابه .. لقد دفعت كثيرا يا سيدى حتى لم يبق لدى ما أدفعه .. وان أرضى لم تغل هذا العام شيئا .. !

وغص الباشا التركى بيساء المتكلم فى كلمة « أرضى » وانتفض من مقعده ، ولطم الفلاح المصرى على وجهه وقال :

.. وأيضا تقول أرضى .. انها أرض السلطان ، وأنتم عبيده ومواليه ..

لقد أجليت هذه الغريزة عن مكانها ، وحل بديلها ، غريزة الحرمان .. أو تقول دون أن يكون فى التعبير تجوز :

ان هذه الغريزة جوعت طوال الاستعمار التركي الذي قبعنا في ظلماته ثلاثمائة عام .. ثم لاتزال تجوع ، وترغم. فاذا كان السلطان التركي الذي يملك جميع أرض مصر قد ذهب وطواه الموت ... فقد حل مكانه عصابة من الاقطاعيين تملك البلاد والعباد.

والجماعات حين تحرم من أن تمتلك أرضها ، وثمار كدحها وكدحها .. أو أن تمتلكها الدولة لحسابها . يكون ذلك وأداوقتلا لغريزة من أهم الغرائز انصالا بوجودها وبقائها وسلامها ..

ان في الفرد غريزة تسمى « غريزة الاقتناء والتملك » تظهر في دور الطفولة ـ فترانا نجمع اللعب ونقتنيها ، ثم تصاحبنا في أطوار حياتنا جميعا ـ وتختلف حالها الوجدانية لدى الناس ، فاذا كانت مهذبة سوية عبرت عن نفسها باقتناء وسائل الهوايات الخاصة كالصور ، وطوابع البريد التي تتيح لصاحبها حياة رغدة تقوم على التكافؤ لا على الانانية والشره والعدوان .. واذا كانت جشعة مفترسة تمظهرت في اقتطاع الارض ، واقتناء التفاتيش وابتزاز الحقوق والاموال ..

وفي بلادنا هذه ـ يوجد سادة يعيرون الشيوعية بأنها ضد الطبائع الانسانية ، لانها تحرم الامتلاك وتهدم بذلك غريزة انسانية عاملة .. يقولون هذا ثم يتحدون هذه الغريزة ويضطهدونها ، ويحرمون الجماهير من الاقتناء والامتلاك .. ؟ !

أتراهم اذن شيوعيين .. ؟ !

قد يعارضوننا متسائلين :

ألسنا نتيح للناس أن يقتنوا ثيابا ، ويمتلكوا بيوتا ، وحيوانات .. ؟

ونجيبهم . نعم ، والشيوعية أيضا تتيح لهم ذلك ، وأكثر من ذلك .. !

ولكننا نريد حقنا في هذه الارض التي سقتها وسوتها

سواعد آباء لنـــا كابدوا فيها الهول والشـــقاء ، وكان كل عزائهم أنها ستصـــير لاحفادهم مثابة ورزقا ..

لقد سقنا في كتابنا ـ الاول ـ الاحصاء الرسمي الناطق بأن اكثر من ستة عشر مليونا في هـــذا الشعب لا يملكون سوى عرقهم المسفوح ، وعذابهم المقيم .. !

ولقد كانت خطورة المســألة تتبدى هناك في المخـــاطر التي يفضي اليها هذا التفاوت الفاحش بين من يملكون كل شيء ـ ومن يفقدون كل شيء .. !

بيد أنها هنا تتبـــدى أمام بصائرنا أشد تجهما وعبوســـا وفظاعة ..

فهي كما ترى الآن تتصـــل بغرائزنا التي أقامهـــا الله فينا ، وناط بها وجودنا وحياتنا .. .

انها كغريزة الجوع ليس لها علاج سوى الطعام .. وكغريزة الجنس ليس لها علاج ســـوى اللقاء .. انها كذلك .. ليس لها علاج سوى أن أمتلك كل حقوقي قبل الدولة التي سمحت لي بأن أوجد فيها ، وأسعى على أرضها وأشقى في العمل من أجلها .. فاذا لم تجد غريزة الاقتناء حظها ـ فانها كأي غريزة أخرى ـ لن تموت ولن تفنى . بل ستغير اتجاهها ، وتنتقم لنفسها ، فبدلا من أن يتسرب نشاطها في الابناع والتعمير .. يتفجر في التقويض والتدمير ... !

هـ ـ المشاركة الوجدانية

وهذه النزعة مسـاك الوحدة وقوام التكتل في الامم والجماعات .. واذا ادرنا ابصارنا في شعبنا فوجدناه مزقا وأشتاتا .. والفيناه خابي الشعور خافت الصيحة ، فلأن حـــكوماتنا المتعاقبـــة ، والاستعمار المجهز من ورائها ـ قد أفسدوا عليه اسمى نزعاته وأنفعها ، تلك هي « المشاركة الوجدانية »

وحتمية ترعرع هذه النزعة ليست فقط من اجل تعاطف الشعب وتضامنه بعضه مع بعض .. بل قبل ذلك من اجل تضامنه مع الحكومة، وتضامن حكومته معه في الالتزامات .. انها حين تستقيم تصير حمام الامان الذي يجنب المجتمع عدوان الدولة ، ويجنب الدولة انتفاض المجتمع .. ويؤلف بينهما ، ويؤاخي بين ما لكل منها من مشاعر وخطط واهداف .. ليتحركا معا صفا واحدا نحو الغايات التي اختاراها وآثرا العمل لها ..

ولا يمكن قط أن تقول أمة : انني بدأت المسير الى المجد .. قبل ان يتم بين حكومتها وشعبها هذا التضام والترابط والمشاركة

ولان الاستعمار لا يريد لنا أن نسير ، فقد استغل هذه النزعة وتوسل باضعافها وارهاقها وتضليلها لبلوغ كل ما يريد لبلادنا من ذلة وانكسار وفرقة

لطالما مكن الرسول عليه السلام لهذه النزعة وعمل لانهاضها ورعرعتها حين كان يدعو الى التجمع ، ويحذر من التخاذل والعزلة ويقول ..

« انما يأكل الذئب من الغنم القاصية .. »

وحين جعل مثل الجماعة المتكاتفة كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالحمى والسهر .. وحين أخبر أن أبعد الناس من قلبه ، وابغضهم اليه هم المفرقون بين الاحبة .. المشاءون بين الناس بالنميمة .. وحين الزم نفسه يوم كان المسئول عن امته وجماعته ان يكون أول جائع اذا جاع الناس .. وآخر من يأكل .. اذا وجد الناس ..!

وحين رفض ايمان كل رجل يبيت شبعان ، وجاره بجواره طاو بطنه على جوع ..

***

ان المشاركة الوجدانية فى الأمة هى عصبها ، وغددها ، وسبب النماء والقوة فيها ..

يقول ماكدوجل :

« .. انها الحالة الانفعالية أو الوجدانية التى تحدث عند الانسان عندما يجدانسانا آخر متأثرا ، فتجعله يشعر بنفس شعوره .. كما لو كان قدانتقل هذاالشعورالىيهبطريقالعدوى . »

ومعنى هذه العبارة فىدلالتهاالواسعة .. انها التيار الذى ينتظم مشاعر الملايين ويتجهبهافى خط طول واحد الى حيث يؤدى غرضه على أكمل صورة وأتمها . . واذا عجزنا عن الاستنجاد بما فى انسانيتنا من حوافز ، فلنتعلم من الحيوان .. انه قادر على أن يهدينا سواء السبيل ..!

يقول العالم الالمانى كهلر: (١)

« .. ان قرود المزرعة كلها كانت تندفع نحو أى شمبانزى صغير وتعانقه الواحد، تلوالآخر، بمجرد سماع صرخة واحدة تند عنه .. »

ويقول العالم الامريكى هولمز:

« .. انجماعة النمل والنحل، وكثيرا من الحشرات يظهرعليها الغضب ، حين يغضب واحد منها لسبب ما .. فتأخذ فى التجمع من غير أن تدرك له سببا .. »

ويروى لنا بعض تجاربه الشخصية فيقول: انه استثار مرة قردا فصرخ، فاذا جماعة القرود تخف اليه وتتجه نحو «هولمز» لتثأر وتنتقم ..

يقول هولمز : « .. حتى ان القردة الوديعة «ديانا» هجمت

---

(١) كتاب علم النفس ـ ج ١ ـ للاستاذ الابراشى وزميليه

علي بتوحش ، معانى كنت قبل ذلك بفترة قصيرة الاعبها، واقدم لها الهدايا .. » ! !

***

أى كارثة ماحقة أصابت أمتنا فلم تعد تجد من الأباء والوطنية والمشاركة مثل ما عند القردة الصغيرة ديانا ..؟!

لقد استجابت «ديانا» لواجبها نحو جماعتها فذهبت تعض اليد التى كانت تطعمها وتناغيها .. لانها اعتدت على زميلة لها أو زميل ..

وفى بلادنا قوم لا يطعمهم الاستعمار .. بل يستذلهم ويمتهنهم ومع ذلك لا يقفون مع الجماعة ضده .. بل العكس، ويتركون القردة «ديانا» تحقق وحدها المثل العليا ، وجلائل الأعمال ..!

***

ان الاستبداد والاستغلال هما «الجامبيا» التى تمتص من هذه النزعة النبيلة طاقتها ..

أفلا ترون ..؟

هذا الاستعمار الذى يمنحنا كل يوم وعدا مكذوبا .. ويلطمنا كل يوم لطمة عاتية ..

والذى يتصرف فى بلادنا دون اعتراف حتى بمجرد وجودنا .. فيتفق مع امريكا على القواعد الحربية فى بلادنا ..!

والذى يجثم على كاهلنا ، ويثير الفتن بيننا لتظل له .. الكبرياء والنفوذ فى الارض ..

وألا ترون ..؟

هذا الفساد السياسى الذى جعل مصر أشبه ماتكون بصحيفة تكتب العناوين الكبيرة بحروف عربية .. ثم تملأ صفحاتها بحروف تركية ..

اعنى ان سلطاتنا التنفيذية ذات طابع مصرى .. ولكن سلوكها كله ، وانظمتها كلها ، وتقاليدها جميعها لا تزال بقية مما ترك الاتراك المستعمرون .. هذا الاستعمار، وهذا الفساد.!

أين الشعب منهما ..؟ انه يهمهم ، ويغمغم ثم لايزيد .. بل حتى همهمته تخرج متنافرة متخاذلة ليس بينها تناغم وتشارك انسجام .. !

لماذا ..؟ لأن نزعة المشاركة الوجدانية فيه لاتؤدى وظيفتها، ولا تستثمر طاقتها طبقا لخطة موضوعة تراعى بها الاستعمار والاستبداد .. فصار عاجزا عن أن يصنع صنيع الشمبانزى حين يضام منها قرد صغير..!

***

هذه هى المطارق التى تتهاوى فوق محاولاتنا ، وتنهال على امكانياتنا :

ا ـ الاستعمار التركى الذى ذهب حكامه ، وبقيت احكامه

ب ـ الاستعمار الانجليزى بنفوذه السياسى ، واحتلاله العسكرى ..

ج ـ البرلمان البرجوازى الذى يمثل غفلة الشعب وطاعته لاوعيه ومشيئته ..

د ـ الغرائز الناقمة التى أضناها طول الاضطهاد، فمضت تعمل ضد المجتمع لا معه ..

والخلاص من هذه الاوزار لايتأتى بوسائل مناقضة للقانون .. بل الطريق اليه سوية ممهدة .. تعتمد على النظام والحب والمثابرة .. وكلها خليقة من الحكومة والشعب بالتقدير والاحترام .

وسندع الآن الاستعمار البريطانى حتى نلتقى به فى الفصل الاخير من الكتاب ..

وسنناقش في فصل جديد ، هو الفصل القادم .. أسباب النجاة من الماضي الذي يطاردنا، ومن البرجوازية النيابية المستغلة التي تعتاق نمونا، ومن الحصار المضروب حول غرائزنا وقوى الحياة فينا

فالى هناك ..